قَـنْـدَة

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخليوي ، عبد الجبار
قندة : رواية/تأليف: عبد الجبار الخليوي.
- ط1- القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، 2018.
208 ص؛ 20 سم.
تدمك: 3 41 6515 977 978
1- القصص العربية
أ- العنوان **813**

* تـــاريخ الإصـــدار: **1439هـ -2018م**
* حقـــوق الطبـــع: **محفوظة**
* رقـــم الإيـــداع: **26394/ 2016م**
* الترقـــيم الـــدولي: **ISBN: 978 - 977 - 6515 - 41 - 3**
* الكـــــــــود: **461/ 2**

* تحـــــــــذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هـذا الكتـاب بـأى شـكل مـن الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفـة منهـا حتـى الآن أو مـا يستجد مستقبلًا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر أو المؤلف.

الوادي
للثقافة والإعلام
ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
darannshr@hotmail.com

عبد الجبار الخليوي

قَنْدة

رواية

لذة الانتقـام لا تـدوم سـوى لحظـة، أمـا
الرضا الذي يوفره العفو فيدوم إلى الأبد ..

(مثل إسباني) ..

إن الشخوص والأحداث في هـذه الروايـة من نسج الخيال، ما لم نذكر أسماء صريحـة، فـإن صـادف وجـود أي تـشابه بينهـا وبـين أشخاص حقيقيّين سواء من حيث التـسمية أو السلوك أو الأفعال، فإنها محـض مـصادفة لا غير..

(1)

تصرخ عجلات طائرة الخطوط الجوية التركية فوق مدرج مطار (أتاتورك) الدولي في مدينة (إسطنبول)؛ لمحاولة تهدئة سرعة اندفاعها فوق أرض المطار .. كان الجو يتوعد أهل المدينة بيوم عاصف شديد البرودة، فتح (عبد القادر) هاتفه (الأيفون) المغلق خلال فترة الرحلة، القادمة من مدينة (الدمام)، فينظر للساعة التي تجاوزت السادسة بعشر دقائق صباحًا، في رحلة استغرقت أربع ساعات، سرق النوم من وقت الساعات التي كانت مقرّرة لقراءة رواية (التكية)، حين قضاها في نوم عميق منذ بداية الرحلة، مُمدًّا جسمه فوق ثلاثة مقاعد كانت شاغرة بجواره، لم يشعر إلا بمضيفة الخطوط وهي تهزُ كتفه الأيمن، وتُنادي عليه بصوت مسموع لينهض من نومه، ويربط الحزام؛ استعدادًا لهبوط الطائرة.

كانت الطائرة تقل على متنها قلة من المسافرين؛ فسفره لم يكن في موسم الإجازات الصيّفيّة للطلاب، ولم يصادف أيام العُطل الرسميّة بالسعوديّة، والشتاء عادةً باردٌ جدًّا في تركيا، لا يُشجع على السياحة بالنسبة للسعوديين الذين يبحثون عن الدفء في مثل أيام برد هذا الشتاء القارس.

يرن جرس جهاز هاتفه النقال بصوت دعاء (الحُذيفي)، فيبحث عنه في داخل جيوبه وفوق المقاعد التي حوله، فلا يجد له أثرًا، فيواصل (الحُذيفي) دعاءه الرمضاني المسجل له من الحرم المكي حتى ينتهي، ليعيد الكرة مرة أخرى بالدعاء نفسه، فيكتشف (عبد القادر) أنّ الهاتف سقط تحت أقدام المسافرين الجالسين أمامه، فينظر في شاشته، فيشاهد المكالمة الفائتة من صديقه (إسماعيل) الذي ينتظره في صالة الاستقبال بالمطار كما هو متفق بينهما، فيتصل به، ويُبادره قائلًا:

- هلا (سُمعه) ..

- حمدًا لله على سلامة الوصول يا (قدوري).

- شكرًا لك (سُمعه)، وأتعبتك معي في الحضور للمطار.

- يا رجل أنت أحد الأصدقاء الذين أكن لهم معزة خاصة منذ أيام الطفولة، حاول أن تُنهي إجراءات السفر بسرعة؛ فربما ستهب عاصفة ثلجية في الساعات القادمة كما علمت من نشرة الأخبار لهذا اليوم، وربما يُغلق الطريق السريع المؤدي إلى مدينة (سقاريا)، وعندها سنضطر أن نسلك طريق القُرى الطويل، أنا أنتظرك في مقهى (بيتي)، مقابل بوابة خروج القادمين مباشرة، وبالتأكيد لن تعرفني بعد غياب أكثر من ربع قرن، رغم رؤيتك لألبوم صوري الخاص في حساب الإنستجرام.

سرعان ما انضم (عبد القادر) لسرب المسافرين القادمين من أنحاء العالم، الذين يزحفون نحو صالة القادمين، متتبعين الإشارات المعلقة في صالة المطار، فلمح من بعيد طابورًا طويلًا ينتظره في قسم الجوازات، ففتح هاتفه النقال ليُخبر صديقه (إسماعيل):

- أخي (سُمعه)، أشاهد أمامي زحمة في إجراءات الجوازات، والطابور أمامي طويل جدًّا، ربما سأتأخر عليك لأكثر من ساعة فلا تقلق.

(عبد القادر) و(إسماعيل) و(عبد الكريم) ثلاثة أصدقاء منذ أيام الطفولة، ومعهم صديقهم الرابع (فريد)، الذي أغواه الشيطان فانحرف عن جادة العقل والصواب، وخط طريقًا سيئًا لحياته، فنفر منها الجميع، إلا أن أصحابه الثلاثة احتفظوا بكل ما هو مشترك بينهم من ذكريات

ومواقف وتعاطفوا معه، بالرغم من سمعة (فريد) السيئة، التي عرفها أهل الحي عنه، جَمعهم حي (القِبلة) في مدينة (البصرة)، وجَمعتهم المدرسة الواحدة في مراحلها الثلاث، فالمعاشرة والمجاورة دائمًا يكونان مسؤولان عن خلق روابط العلاقات الاجتماعية بين البشر، وهم جميعهم من أبناء الشارع الواحد الذي احتضن بيوتهم المتجاورة، ذات الجدران المتلاصقة، قضوا جُل أوقات صباهم مع بعض، بين أزقة الحيّ الصغير الذي سَبَرُوه طولًا وعرضًا، وعرفوا بيوته بيتًا بيتًا، الواقع في أقصى جنوب مدينة (البصرة) .. بعضُ سكانه من المهاجرين (النجادة) منذ أيام نشاط الهجرات النجدية لجنوب العراق .. بعض منهم مُلاك للبساتيّن المنتشرة في منطقة (الجنوبات)، والبعض الآخر تجار، يملكون معارض ومحلات تجارية في (سوق الهنود) بمنطقة (العشار)، علاقتهم ببعض قوية جدًّا، لدرجة أن أم كل منهم هي أم للآخرين؛ لذا لم يُمانع أهلهم من تناول بعض الوجبات الغذائية في منزل أحدهم، وإذا أراد أهل أحدهم أن يبحثوا عن ابنهم فسوف يسألون أحد هؤلاء الأربعة عنه.

(فريدٌ) منذ نعومة أظفاره ذو تصرفات غريبة وشاذة عن أقرانه وعن أصحابه الثلاثة، فله سلوكياته الخاصة التي تُميّزه عنهم بكل وضوح، أسماه أهله فريدًا تيمّنًا بالمطرب (فريد الأطرش)، الذي كان يعشقه

والده، ويُحاكيه في أكثر أغنياته، عندما يحمل آلة (العود)، ويُدندن بأغنية (الربيع) .. والد (فريد) قادم من مدينة (الكوت)، ولقد كان (فريد) اسمًا على مسمى بمعنى الكلمة .. (فريدٌ) بكل شيء، صعب المراس، حاد الطبع، مستعد للدخول في معارك ضارية لأتفه الأسباب، فريدٌ بعقله، فريدٌ بتصرفاته، فريدٌ بإجرامه .. في أحد الأيام ضرب ثلاثة من المدرسين دفعة واحدة ومعهم مدير المدرسة، عندما رآه أحد المدرسين المكلفين بواجب رقابة ساحة المدرسة في أثناء فترة (الفُسحة) يُدخن سجاير مع بعض الطلبة، تحت شجرة (الأثلة) الضخمة المائلة، وكأنها راكعة، النابتة بدون عناية ورعاية من أحدٍ، في أحد زوايا المدرسة عند سورها الغربي، فطلب منه الأستاذ عدم التدخين والامتثال لتعليمات إدارة المدرسة في (ممنوع التدخين) داخل مبنى المدرسة، ولكن فريدًا لم يمتثل للأمر مثل باقي زملائه، ولم يرمِ السيجارة التي بين أصابعه مثلما فعل زملاؤه، بل رد على الأستاذ بكل وقاحةٍ وقلة أدبٍ:

- هل الأساتذة ملتزمون مثل التزام الطلبة، بلوحات (عدم التدخين) الكثيرة في داخل مبنى المدرسة؟

حينها حاول الأستاذ سحبه من يده للإدارة على سوء أدبه وتطاوله في الكلام على أستاذه، لكن فريدًا رفض الانصياع لأمر الأستاذ من أجل الذهاب معه للإدارة، وضرب بيده الأخرى يد الأستاذ الممسكة بساعده، وسرعان ما تدخل اثنان من الأساتذة مع زميلهم ضد (فريد)، فدارت معركة حامية الوطيس بين المدرسين الثلاثة من جهة و(فريد) لوحده من جهة أخرى، ثمّ انضم للمدرسيّن مدير المدرسة في معركة شهدها كل طلاب مرحلة الثانوية العامة، ولم تتوقف المعركة إلا بتدخل من رجال الشرطة، وإقامة دعوى اعتداء على المدرسين ضد (فريد)، فتم فصله وطرده من المدرسة .. كان (فريد) وقتها في آخر سنة دراسيّة له.

حذره والده للمرة الألف أن يكف شره وأذاه عن الناس عمومًا، وبالأخص أهل المنطقة التي يُقيمون فيها؛ حيث لم يبقَ بيتٌ في الحي إلا وطاله شره .. لقد تعب أهله في تربيته .. قارع جميع المنكرات، وسكن قلبه في كهف الظلمات والغواية.

أخيرًا قرّر والده طرده من البيت؛ لعله يتعظ ويرجع لصوابه ورشده، لكن هذا الطرد والتشريّد زاد (فريد) في إجرامه وتطرفه في تصرفاته، فاعتزل أصحابه وشباب الحي، بعد أن شعر بقسوة جفوتهم له؛ بسبب تحذير أهلهم منه ومن شره، فسكن بيتًا مهجورًا (خَرِبة)، ليس بعيدًا

عن الحي الذي ترعرع فيه ونشأ، تساقطت بعض جدرانه الخارجية والداخلية، وأهمله أهله حتى إشعار آخر، ينتظرون أن تنتهي تصفية التركة في قاعة المحاكم بين الورثة المتخاصمين، (خَرِبة) تسكنها القطط والكلاب المشردة وتُعششُ فيها العناكب، وتزحف فيها كل أنواع الحيات والعقارب، وتحفر أرضها خلايا النمل والديدان والخنافس، وتُعتبر (الخرِبة) مكانًا لقضاء الحاجة بالنسبة للمار، ويقصدها المضطر.

كل من في الحي يهاب (فريد)، ويخشى تصرفاته وردود أفعاله المجنونة؛ فلذا كانوا يتجنبون مواجهته .. سُجن عدة مرات في عدة قضايا، يخرج من السجن أشدُ بأسًا وأشدُ إجرامًا من ذي قبل، وكأن السجونَ مصانعُ شرٍ، ومدرسة فساد وإجرام للمساجين، تُربيهم على العداوة والكراهية والإرهاب والتطرف في العلاقات الإنسانيّة .. يحتفظ (فريد) في جيبه دائمًا بعدة القتال (سكينًا) أوتوماتيكية و(بوكسًا) حديديًّا.

لم تسلم من شره وتحرشاته النساء اللاتي يصادفنه في طريقه، ذات الوجه الكاشف وذات الوجه المستور، ولم يسلم من عقيرته الشاب ذو الوجه الوسيم، ولا ذو الشعر الأشقر الطويل، برغم قذارته ونتانة جسمه.

تعود أن يقف عند بائعي السجاير والسندويشات فيلبوا له طلبه دون تردد؛ خوفًا منه وليس حبًّا فيه، كذلك يفعل مع كل البائعين في الحي، المتجولين بعرباتهم وأصحاب الدكاكين، فالكل يدفع له ثمن كف شره وأذاه، وتُسجل القيمة في حساب ذمته.

وفي يوم من الأيام قرّر بائع الخمر (روميل) عدم إعطاء (فريد) قارورة (خمر) على الحساب كعادته، وفكر بصده ورده بقوة، فنهره وطلب منه قيمة الشراب نقدًا؛ لأن في حساب ذمته مبلغًا كبيرًا لم يقم بسداده. فغضب منه (فريد) وقال له: لا أملك نقودًا الآن، سجل في دفترك كالعادة وسوف أدفع قيمته غدًا أو في خلال هذا الأسبوع، عندما أحصل على نقود .. فضحك (روميل) واستهزأ به وطرده من محله، فهدده (فريد) بالانتقام منه قريبًا وسوف يندم. فذهب الخمّار (روميل) لمركز الشرطة لتدوين تهديد (فريد) له بشكوى رسميّة، وكالعادة أحضر أحد أفراد الشرطة فريدًا مقيد الأيدي للمركز؛ من أجل إثبات تهديده للخمّار، ولم يُنكر (فريد) التهديد والانتقام، وقال لمركز الشرطة: أردتُ منه دينًا على الحساب لا عطاءً ولا هبة، كما يفعل مع غيري من المدمنين على خمرته، وهددته من باب التخويف لا الفعل، ولكنه رفض. فوُضعَ فريد على

أثرها شهرًا كاملًا في السجن العام؛ عقابًا له، وردعًا لأمثاله ممن يُهدد أمن وحياة الناس، ثمّ أطلقوا سراحه.

ذهب (فريد) فور خروجه من السجن لمحل الخمّار (روميل) .. توقف عند باب المحل يُحدقُ بوجه الخمّار لساعات طويلة دون حراك؛ مما استفز أعصاب (روميل) الذي لم يستطيع أن يتمالك أعصابه، فأغلق محله قافلًا إلى بيته، يُفكر في ردة فعل هذا المعتوه (فريد). في اليوم التالي من خروجه من التوقيف تختفي بنت الخمّار الصغيّرة، التي اسمها (جاهلين)، التي لا يتجاوز عمرها السبع سنوات، فيذهب والدها لمركز الشرطة ويخبرهم عن اختفاء ابنته الصغيرة، ويتهم فريدًا بأنه خلف قضية اختفائها؛ فلقد سبق أن هدده .. أحضروا فريدًا مُقيّدًا بالأصفاد للمركز مرة أخرى، ليُحال فورًا للتحقيق، يتعرض لقسوة التعذيب وشدته، لكنه لم يعترف بشيء لهم؛ بل أنكر هذا الاتهام البشع، وطالبهم برد اعتبار لسمعته، وقال لهم بصوته الخشن الواثق من معرفة نفسه:

- ماذا أفعل بطفلة بريئة صغيرة لا ذنب لها من تصرف والدها؟ ولو أردت أن أنتقم لانتقمت من الخمّار نفسه.

يُحتجز (فريد) في غرفة التوقيف مع المجرمين واللصوص والمشبوهين على ذمة إجراءات التحقيق فيما بعد مرة أخرى.

بحث والدها عنها في كل مكان، فلم يجد أثرًا لابنته، رغم أنه يسكن في حي صغير ومعروفة تحركات (فريد) فيه .. وضع (روميل) مكافأة مالية مغرية لمن يعثر على ابنته حية أو ميتة، أو يُدلي بخبر عنها.

بعد ثلاثة أيام يخرج (فريد) من التوقيف براءة من هذه الجريمة؛ لعدم ثبوت التهمة ضده، رغم قسوة التعذيب الذي تعرض له، وبدأ أهالي المدينة - وخصوصًا أبناء الحي - يتهامسون فيما بينهم بسعادة وفرحة ويقولون: كل ما حدث للخمّار (روميل) عقوبة من رب العالمين؛ لبيعه (الخمرة) المحرمة للناس.

عاد (فريد) مساء ذلك اليوم لمسكنه المهجور (الخَرِبة)، بعد أن أُخلي سبيله براءة، فيجده كما كان، لم يعبث به أحد من الإنس والجن، غير أصدقائه الكلاب والقطط والحيات. يتنفس الصعداء في داخل نفسه الفخور بها، ويشكر عزيمته على صمودها وتحمّلها، وعلى قوة تماسكها أمام قسوة المحققين وأساليب تعذيبهم له .. إنه مُعجبٌ في نفسه أشد الإعجاب، هذه التجربة منحته ثقة عالية جدًّا في نفسه، فحدث نفسه في أثناء فترة نومه، بأنه سيذهب بعد صلاة الفجر لحوض منارة الجامع

الكبير في الحيّ؛ لرؤية المختطفة (جاهلين) .. هل لا تزال على قيد الحياة؟ أم ماتت جوعًا وعطشًا وخوفًا؟

وفي عتمة ظلام تلك الليلة الحالكة يأتي رجل مُلثم وجهه بقطعة قماش أسود، ويحمل (جالونين) من (الكيروسين) السائل، فيُفرغ ما فيهما في غرفة (فريد)، النائم دون شعور بمن حوله؛ لشدة تأثير الكحول على عقله، وبعود ثقاب يرمي علبة الكبريت كاملة لتحترق الغرفة بمن فيها.

هكذا انتهت حياة صديقهم الرابع (فريد)، كومة من رماد تتلاعب فيها الرياح كيفما تشاء .. يقف كل من يعرفه على حدود (الخَرِبة) مشدوهًا أمام بقايا الركام الأسود، الذي خلفه الحريق، ويستشعر قول الله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل:118] ، ويعرف كل إنسان أن ما يصنعه بداخله من خُلق ينعكس على تصرفاته الخارجية .. هذا هو قانون الحياة، والله عز وجل يقول في مُحكم التنزيّل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11].

أما الثلاثة الآخرون فقد فرقتهم الحياة بعد إنهاء مرحلة الدراسة الإعداديّة في (الثانوية المركزيّة) في (العشار)، قضوا فيها أجمل الذكريات لمدة ثلاث سنوات، بعد أن كان يجمعهم طريق واحد وهموم مشتركة.

كل منهم ذهب في طريقه الخاص به، شاقًّا مستقبل حياته الجامعيّة. فعبد الكريم سجل بجامعة (البترول والمعادن) في الظهران، هندسة بتروليّة، أما (عبد القادر) فالتحق بجامعة (الملك سعود) في الرياض، ودرس المحاسبة، ودرس (إسماعيل) بالجامعة (المستنصرية) في (البصرة).

إلا أن علاقاتهم الأخوية لم تنقطع يومًا ما، رغم فتورها في بعض الأحيان، ورغم انقطاع زياراتهم للبصرة؛ وذلك بسبب الظروف السياسية التي عصفت بالعراق، فأشعلت فيه نار حربين مدمرتين للعراقيّين، كانت القيادة العراقيّة سببًا في إحداهما.

كان تواصلهم مستمرًّا عبر الرسائل البريديّة والمكالمات الهاتفيّة، وبعد ذلك تم التواصل بينهم عبر البريد الإلكتروني منذ بداية ظهوره، وقنوات التواصل الاجتماعي الكثيرة لاحقًا، التي فقست بيضها في أجهزة الهواتف الذكية المحمولة، فأسس كل واحد منهم صفحته الخاصة به؛ للتعارف على أصدقائه وأهله، في كل من الفيس بوك وتويتر والإنستجرام.

(إسماعيل) عصفت به ظروف سيئة جدًّا، كان أسوءهم حظًّا في مشوار حياته؛ فبعد تخرجه من الجامعة كان عليه أن يلتحق بواجب

الخدمة العسكرية الإجبارية في بلده، قضى فيها أتعس أيام حياته في معسكر (التاجي)، الذي يبعد 30 كم شمال بغداد، برتبة ملازم، وبعد عدة شهور دفعوا بكامل وحدته لجنوب العراق، في الجبهة الشرقية لقتال شرذمة (الفرس) وأحفادهم الحاقدين على العرب والمسلمين، والمعتدين على أمن بوابة العرب الشرقيّة .. كانت أسوأ الذكريات في صفحة حياته، لا يزال يذكر أصوات القصف ودوي المدافع وصراخ الجُند في أرض المعركة، يطن في أذنه كل حين .. عاش تلك الأيام بين الخوف على حياته وبين المشاهد المحزنة المؤلمة لتساقط أفراد الجيش من حوله في أحضان الموت، وبعد إنهائه للخدمة العسكريّة الإلزاميّة التحق بـ (شركة النفط الوطنية) بوظيفة محاسب في الإدارة المالية، وعُيّن في منطقة (البرجسيّة)، بمعرفة خاله (نشأت) قبل وفاته بسنة، الذي كان عضوًا بارزًا في مجلس القيادة القطرية لمحافظة (البصرة).

تزوج (إسماعيل) (فاطمة)، ابنة خاله (نشأت) الصغرى، عن قصة حُب دامت أربع سنوات، وأتى بها عروسًا من منطقة الناصرية، واستأجر منزلًا صغيرًا مناسبًا لهما في منطقة (المعقل) في مدينة (البصرة)، رزقه الله منها طفلين جميلين، أسماهما ثائرًا وثامرًا.

كان (إسماعيل) فطنًا وذكيًّا ومثابرًا وجادًّا في حياته العملية، فواصل دراساته العليا في الفترة المسائية في (الجامعة المستنصرية)، فنال درجة الماجستير، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في تطبيقات الأنظمة المحاسبية المعاصرة في الحاسب الآلي، وحصل على عدة ترقيات في عمله، كان آخرها تعيينه رئيسًا لقسم المحاسبة، ورشحته جامعة (البصرة) للعمل كأستاذ مشارك في كلية الإدارة والاقتصاد؛ بسبب هجرة العقول الأكاديميّة العراقيّة لخارج الوطن فاعتذر لهم، وقدم لهم أسبابًا مقنعة نوعًا ما لتعفيه من الدخول في دهاليز المساءلة الحزبية، والهرب من المسؤوليّة.

عاش (إسماعيل) كباقي العراقيّين في ضنك وشقاء من شدة ويلات الحصار الاقتصادي العالمي، الذي ضرب العراق من شماله لجنوبه، بعد أن خاض حربين شرستين مدمرتين، كانتا كمينًا أمريكيًّا غربيًّا مدروسًا للحكومة العراقيّة؛ من أجل توريطها فيهما، نفذتها الحكومة بغباء دون دراسة ودراية في لعبة السياسة المعاصرة القذرة، ولم يشعروا بأن العالم يسير في طريق العولمة والدولة الواحدة، فساد البلاد تضخم كبير جدًّا، وانتشر فيه الفساد الإداري في كل مكان، فارتفعت على أثره جميع أسعار السلع، وجميع المنتجات المحلية تحت ضغط منسوب عامل (الندرة) في وصول البضائع المستوردة للبلاد، فأصبحت الرواتب

الشهرية لا تسد حاجات مصروف أسبوع واحد، وسمع (إسماعيل) - عبر قنوات المحطات العالميّة المشهورة - إصرار (قوات التحالف) بزعامة أمريكا والغرب على غزو العراق عسكريًّا قريبًا، وبدأت مرحلة التهديدات المدعومة بالشرعيّة الدوليّة؛ للإطاحة بالحكومة العراقيّة بصورة علنية وسافرة، وأصبحت وصمة عار في جبين الحضارة والمدنية، سيذكرها التاريخ في يومٍ ما، وقد بات هذا الاجتياح قريبًا جدًّا، وساعة الصفر تدنو شيئًا فشيئًا من مرحلة تنفيذ مخطط هذا الغزو العسكري السافر للعراق، فبدأ (إسماعيل) يبحث له عن مخرج لإنقاذ ما يمكن إنقاذه لمثل هذه الأزمة الجديدة القادمة، التي تطل عليهم برأسها البشع، ولا يعلم أحد عن أحوال مناخها وخطرها شيئًا، ومع تدهور ظروفه المالية التي أتعبت حياة متطلباته اليومية، رغم الدعم المالي المُقدم له من أصحابه في السعودية من باب مساعدة صديقهما؛ لذا فإن (إسماعيل) سارع بإرسال شهاداته الجامعيّة وأوراق خبراته العمليّة لعدد من الجامعات الخليجيّة والعربيّة، فقبلته إحداها أستاذًا براتب مقنع، مع مغريات سكنيّة وعلاجيّة له ولعائلته.

فأعد (إسماعيل) كل أوراقه الرسميّة المطلوبة، وذهب إلى إدارة الجوازات؛ من أجل الحصول على جوازات سفر له ولعائلته التي سترافقه.. وبعد اطلاعهم على ملفه الشخصي، تم إحالته لإدارة الأمن العام في (البصرة)؛ نظرًا لمنع كل العراقيّين من السفر لخارج البلاد، إلا بموافقة استثنائية من (الأمن)، لأمر تقتضيه مصلحة الوطن، أو تكون الموافقة بسبب ظروف مرضيّة مستعصية العلاج في مستشفيات العراق.

ذهب (إسماعيل) لإجراء المقابلة الشخصية بحماسٍ ونشاطٍ، يدفعه أمل كبير في الحصول على موافقة لإصدار جوازات سفر لهم، فساقه أحد الموظفين لمكتب المسؤول الأمني، الذي كان يرتدي (بدلة) كاملة، بما فيها رباط العنق، وجرت العادة بأن تجري المقابلات الشخصية مع ذوي الشهادات والكفاءات العالية في البلد دون غيرهم من المواطنين، الذين يتم رفضهم من إدارة الجوازات نفسها، دون تحويلها لجهات الأمن الرسميّة، وفي الغالب تكون اللقاءات سهلة ومرنة معهم؛ كي يشيع هؤلاء المثقفون عنهم شيئًا من الحرية الشخصية في التعبير عن رأيهم، فطلب منه المسؤول الأمني الجلوس على الكرسي الموضوع أمام مكتبه الفخم، وشاهد رجلًا يجلس بالقرب من مكتبه، كث (الشنب)، ذو شعر رأس خفيف جدًّا، ترك نظارته الشمسية فوق رأسه، وضع أمامه فوق

طرف المكتب ملفًّا في داخله عدة أوراق بارزة بعض أطرافها للعيان، لم يتكلم أبدًا طيلة فترة اللقاء، وكأنه غير موجود، مثله مثل قِطع أثاث المكتب، ولكن قدم لسيده عدة أوراق أثناء فترة المقابلة، فبدأ التحقيق مع (إسماعيل) دون الدخول في مقدمات تفصيليّة ليس لها داعٍ؛ فلديه الكثير ممن ينتظرون دورهم:

- دكتور (إسماعيل): ما الهدف من حصولك على جواز السفر؟

استغرب (إسماعيل) من هذا السؤال في قسم الجوازات!! فماذا يفعل المواطن بحصوله على جواز سفر؟ حتمًا أن المحقق ينتظر منه ردة فعل أو إجابة غير متوقعة، ولكنه أجاب على قدر السؤال، دون إضافة تُلزمه تبعاتها فيما بعد:

- من أجل السفر لو سمحتم.

- إلى أين إن شاء الله؟

- دولة الإمارات العربية.

- ماذا ستفعل هناك وبلدك بحاجة لك هنا؟

- العمل.

- أين؟

- في جامعة (العين).

- كيف تعرّفت عليها؟

- بالمراسلة.

- لماذا رفضت العمل في جامعة (البصرة)؟

- الراتب والحوافز غير مشجّعة، والتدريّس مهمة صعبة وشاقة.

- أجل، لماذا قبلت التدريس في جامعة (العين)؟ أليست صعبة وشاقة عليك؟

- العرض مغرٍ ومشجعٍ.

- ألا تعلم؟ نحن نعيش الآن في أزمة حصار من قبل كل دول العالم؟ وممنوع حاليًا سفر الأكاديميّين وأصحاب الشهادات العُليا بأمر من السيد القائد حفظه الله ونصره؛ فالوطن في هذا الوقت بأمس الحاجة لخدماتهم؟

فهز رأسه بنعم، وانصرف من المكتب بناءً على طلب المحقق.

بعد مرور أسبوعين من تقديم الطلب ذهب (إسماعيل) لمكتب (الأمن العام) مرة أخرى، يحمل معه قُصاصة ورق بيضاء صغيرة، كُتب عليها بخط يد رقم وتاريخ المعاملة الخاصة به للمراجعة فيها، بخطٍّ من الصعب جدًّا قراءته، فقدم الوريقة من خلف شباك مربع صغير، مساحته نصف متر عُرضًا ونصف متر طُولًا، محاط بقضبان حديديّة متوازية، يطل على الشارع العام مباشرة، فاستلمتْ منه القصاصة يد رجل معروقة بخاتم ذهب براق، ضخم ذي فص أسود كبير يُزين إصبعه البنصر الغليظ، وبين أصابعه ترك سيجارته التي استهلك نصفها، خيط دخانها تسرب لصدر (إسماعيل)، الذي بدأ يسعل .. سمع صوته يُلقي الأوامر بصوتٍ مرتفعٍ، ولم يرَ وجهه، وطلب منه الانتظار بعيدًا عن الشباك مع زحمة المراجعين الواقفين.

وبعد ساعتين من انتظار (إسماعيل) عند جدارٍ مرتفع؛ بحثًا عن مكان يغشاه الظل، كي يحميه من أشعة الشمس الحارقة، تحدث مع بعض المراجعين الواقفين عن هموم الحياة وتعبها، كما جرت العادة في أيّ تجمع جماهيري، تسمع أنين هموم الحياة وشدة قسوتها، نُودي على اسمه من الشباك نفسه بواسطة مُكبر الصوت، كالذي يُستخدم في حراج السيارات، وكأنه الفرج والبشرى بالنسبة لإسماعيل عندما سمع اسمه،

ومن الشباك طُلبَ منه الدخول للمبنى عبر البوابة الجانبيّة، فوجد عند البوابة شابًّا أنيقًا في مظهره - لا يتجاوز عمره العقد الثالث، حليق (الشنب) - في انتظاره، يُغطي عينيه بنظارة سوداء عاكسة للصورة، يرتدي (بدلة) ذات لون بني، قاده لغرفة صغيرة في باحة المبنى، يحرس بابها الخشبي المتصدع (عسكري) برتبة (عريف)، أتعبته فترة الوقوف وأنهكه العطش، فجلس فوق صندوق خشبي متهالك ليشرب ماء من قنينة صغيرة، يحمل بندقية (كلاشنكوف) على كتفه الأيسر، فدخل (إسماعيل) الغرفة، فوجد ثلاثة من الرجال الجالسين على (مصطبة) حديديّة طويلة، على وجوهم الضيق والضجر من طول فترة انتظارهم في هذا القفص الساخن، وتكون فترة الانتظار في مثل هذه المواقف عصيبة وطويلة ومملة، فسلم عليهم، فردوا عليه السلام بتحفظ شديد، وبدون رغبة في رد السلام .. لم يجرؤ أحد منهم أن يسأل إلى متى هم باقون في هذا المكان الضيق المخنوق؟ وماذا هم ينتظرون؟

وبعد الساعة الثانية ظهرًا، ومع نهاية الدوام الرسمي ساقوهم بسيّارة مدنية إلى مبنى صغير يقع خلف مشفى (السعدي) في منطقة (الجزائر) بالعشار .. دخلت السيارة من باب (المرأَب)، الذي فتحه له رجل مدني في منتصف العمر نحيف طويل، يضع مسدسًا صغيرًا تحت حزام

(صروال) خصره الضيق، الشبيه بخصر امرأة تُمارس حِمية غذائية، واضحًا للعيان مقبضه من الخلف، والمبنى عبارة عن (فيلا) صغيرة ذات باحة كبيرة كثيفة الأشجار، مكونة من عدة غرف ودور أرضي (سرداب)، تبدأ عتبات درجه في النزول من قلب الصالة.

طلب منهم الرجل نفسه النزول للسرداب عبر درجاته، بعد أن فتح لهم بابه الحديدي المغلق، فشاهدوا في أحد غرف السرداب ثلاثة من الرجال المحتجزين، واضح على وجوههم إرهاق التحقيق وطول فترة الاحتجاز في هذا المكان، خيّم على ملامحهم التعب والوجوم والسهر، فسلموا عليهم، فلم يرد أحدٌ منهم، ظنوا أنّ أحدهم لابد أن يكون من رجال المخابرات المندسين معهم، كعادة مسرحياتهم السخيفة المتكرّرة، تعوّد المحتجزون على مشاهدة فصولها الدراميّة، فالأمن بين فترة وأخرى يبعث بأحد رجاله للسرداب، يندس بينهم بهدوءٍ؛ ليلتقط شيئًا من الحديث الذي يدور بينهم، فكان كل محتجز بالسرداب يظن بالمحتجز الآخر بأنه مُرسل من قبل رجال المباحث، حتى أصبح الواحد منهم يشك بمن هو نائم بجواره في الغرفة، وهذا هدف يُريد تحقيقه جهاز الأمن ويسعى له دائمًا.

وفي المعتقل عادة تتوقف الحياة بمعناها الشرعي الذي يعرفه الناس، فلا تفاعل اجتماعي من خلال الحوار مع الموقوفين، ولا خروج من الغرفة لتختلط بحرية مع آخرين، سوى تلك المرات التي تُقاد فيها مقيدًا لغرفة التحقيق، سواء أكان في آخر الليل أو في أول طلوع النّهار، والتي لا يحق لك التلفت فيها مطلقًا، لمعرفة ما حولك من معالم، ولا تُشاهد غير انحطاط غطرسة السجانين وبذاءتهم، وقسوة المحققين وإجرامهم، فكأن واجبهم الوحيد هو العمل على سحق إنسانية المعتقل، وإذلاله وتحطيم نفسيته، لكن الروح الإنسانية تأبى إلا أن تنتصر على كل الطغاة، ففي أسوأ ساعات اليأس يمكن أن يُولد الأمل.

وبعد مرور عدة ساعات من الحبس، كانت ثقيلة على قلب (إسماعيل) .. انتظار ممل وكئيب، لازمه صمت قاتل يطوف بين وجوه المحبوسين الصامتين، شَغَلَ (إسماعيل) نفسه خلال فترة توقيفه بالتفكير بوضع قوات التحالف الدوليّة التي تقف على أعتاب حدود وطنه الغالي، من جميع جهاته، منتظرة ساعة الصفر ليؤذن لها في غزو العراق شرعيًّا .. فجأة يظهر أحد الحُراس عند الباب ليجره من لجج أفكاره، ويعيده إلى مستنقع واقعه السيئ من جديد، ويطرد عنه هذا القلق والاضطراب المفاجئ والطارئ، الذي أخذ يتعاظم أمره في أعماقه، فحاول كل جهده أن يبدو متماسكًا، رابط الجأش؛ فَهُو لم يفعل شيئًا،

مهما كان بسيطًا، يمكن أن يُدان بسببه؛ لذا عليه أن يصمد قليلًا، وأن لا يدع الخوف يُسيطر عليه، فيبدو كمن ارتكب ذنبًا يخاف أن يُفتضح أمره، يقف الحارس كلوح خشب، ويستدعي (إسماعيل) من بين المحبوسين للتحقيق معه، فظنها (إسماعيل) ساعة الفرج والإفراج بعد طول انتظار، فنهض بنشاط مسرعًا لمرافقة الحارس لمكتب التحقيق، يسير وهو مشتت الفكر، لا يعرف إلى أين يمضون به، أراد أن يسأل، لكنه قرّر أن يصمت وينتظر ما سيحدث، فطلب منهم فور خروجه من السرداب مباشرة ضرورة إخبار زوجته وأهله عن مكان احتجازه وسببه، فأخبروه بأنّهم أبلغوا أهله وذويه بهذا الأمر، وطمأنوه بأنّ ما يحدث من إجراء اعتيادي جدًّا يخضع له الموقوف احترازيًّا، مجرد تحقيقات روتينيّة لن تطول معه ولا مع غيره من الموقوفين، يتم إجراؤها مع كل من يُريد السفر لخارج البلاد، وسوف يعود لأهله خلال الساعات القادمة إن كان متعاونًا معهم في التحقيقات.

وعلى الرغم من الوعود الشفهيّة التي سمعها (إسماعيل) من المحقق، إلّا أنّ أعصابه الثائرة لم تهدأ من شدة ثورتها، وراح يفكر في المفاجأة القادمة بالتحقيق معه، فسألهم:

- كيف أخرج والقيد يغلّ يديّ، وجدران السجن تعتقل جسدي وروحي، وعيون الحُراس تُراقب كل أنفاسي وتحركاتي؟

فابتسم المحقق بخبث وهو ينظر لجرأة (إسماعيل) على هذا الحديث، وقال:

- أنت هنا لا لتسأل يا دكتور، أنت هنا لتُجيب عن أسئلتنا فقط، عليك أن لا تنسى هذا مستقبلًا، في أي تحقيق هنا يا دكتور.

فخفّف (إسماعيل) من شدة ثورته المستعرة في داخله، بعد أن أكلت ناره كل حطبه، فبدأ يُسيطر على أعصابه من جديد، فلا تزال التحقيقات التي تعرض لها في حادثة اتهامه على تحريض بعض عمال شركة النفط الوطنيّة تنثال على ذاكرته بقوة ونشاط، فقال بصوت يغشاه الرجاء والأمل:

- آسف .. فأنا لا أشك في إجراءاتكم العادلة.

- يا دكتور (إسماعيل)، لماذا تواصلت مع مكتب القنصليّة الليبيّة في بغداد؟

- لم أتواصل مع أحد، بل ذهبت لتوثيق وتصديق شهاداتي العلميّة والعمليّة.

- لماذا؟

- قدمت على العمل في شركة النفط في ليبيا.

- لكنك ذهبت عدة مرات للقنصلية، وفي أحد الأيام أخذت معك ملفًا بداخله أوراق كثيرة، ومكثت في داخل المكتب لأكثر من ثلاث ساعات، لماذا؟

- كان في ذلك اليوم عندي لقاء مع نائب القنصل؛ من أجل الحصول على إقامة عمل في ليبيا، والملف الذي رأيتموه معي كان بداخله أوراق رسالة الدكتوراه التي قدمتها للجامعة.

- عن ماذا كانت أسئلتهم الموجهة لك في اللقاء؟

- كانت تدور حول تخصصي وخبراتي، وعن رسالة الدكتوراه التي حصلت عليها، وعن المدينة التي سوف أقيم فيها.

- وعن ماذا غير هذا؟

- لا شيء

- هل سألوك عن عملك في شركة النفط؟

- نعم، سألوني عن الإدارة التي أعمل فيها.

- هل سألوك عن كمية منتجات النفط بكونك محاسبًا؟

- لا.

- هل سألوك عن انتمائك الحزبي؟

- نعم.

- ماذا أجبتهم؟

- ليس لي انتماء أو ميول حزبيّة.

- لماذا ليس لك ميول حزبيّة؟

- لا أحب وجع الرأس والالتزامات السياسيّة، فالسياسة معركة، فيها غالبٌ ومغلوب، ولا أحب خوض المعارك.

- هل أنت جبان؟

- لا .. لكن أنا لدي أولويّات.

- ما هي الأولويّات في حياتك التي منعتك من الانخراط في المعترك السياسي الوطني، الذي يُعتبر واجبًا وطنيًّا مقدسًا؟

- الاهتمام بعائلتي وتربية أبنائي، (ثائر) و(ثامر).

- هذا كلام الجُبناء من النساء يا دكتور ..

لم يرد (إسماعيل) على هذا الاتهام؛ مما أغاظ المحقق سكوته كثيرًا، فمد المحقق يده لخلف الكرسي الذي كان يجلس عليه، فضغط على زر

أبيض مزروع على الجدار، تحت صورة رئيس الجمهورية مباشرة، وعلى جانبي صورة الرئيس انتصبت بعض خزانات حديدية مثقلة بالملفات الملونة، سمع (إسماعيل) صوت رنين جرس خافت، وظنه استدعاء للرجل الذي يقف خلف الباب كي يحضر، الذي كان ينتظر تنفيذ أوامر سيده في أيّ لحظة، وبلمح البصر فتح الباب الرجل نفسه الذي أتى به من مكان الحجز؛ ليُعيد (إسماعيل) مرة أخرى للسرداب بناءً على طلب المحقق، وبعد عدة ساعات طلبوا آخر من المحتجزين، وبعد ساعتين من التحقيق أعادوه مرة أخرى لغرفة الحبس في السرداب.

حاول (إسماعيل) أن يتحدث مع الرجل الذي يجلس بقربه، كانت تبدو على ملامحه الكآبة والحزن الشديد .. بداية خشي (إسماعيل) منه، ولكنه سرعان ما جمع قوى عزيمته الخائرة وبقايا شجاعته المنهارة أسوارها بين الجدران الأربعة وسأله:

- منذ متى أنت هنا؟

- منذ أسبوعين إن صدقت ذاكرة الأيام معي، فنحن كما ترى لا نعرف الليل من النّهار، جردونا من الساعات والمحافظ والهواتف النقالة، واحتفظوا بها عهدة عندهم لوقت خروجنا، هذا إن خرجنا من هذا القفص، أما ذلك الرجل (الملتحي) الجالس أمامنا فمنذ شهرين هنا، حدثني عن نفسه أنّ تهمته الوحيدة أنّه يُريد السفر إلى فرنسا بعد أن

وجد عملًا مناسبًا له فيها، فظنوا بعد تحرياتهم الخاصة والتحقيقات معه بأنّه عميل فرنسي، كان يرسل تقارير عن أوضاع العراق الداخليّة.

فانزوى (إسماعيل) في عتمة الصمت، ولم يُعلق على ما سمع من جاره، رغم أنّ جاره كان يُريد مواصلة الحديث معه؛ ليُعرّفه بنفسه ويتعرّف عليه، فربما أحدهما يخرج من الحبس قبل الآخر، فينقل أخبار صاحبه لأهله، لكن (إسماعيل) أبحر في قارب خياله إلى ميناء الغيب؛ لعله يجد أبواب السماء مفتوحة، فيعرف كم سيمكث في هذا السرداب التعيس؟ فبدأ بينه وبين نفسه يتنبأ كم يومًا سيجلس في هذا المكان الموبوء برائحة المجاري العفنة، الذي يجعل التنفس صعبًا جدًّا، ويجول فيه أنواع الصراصير بحرية تامة.

وبعد أسبوع آخر أخذوا (إسماعيل) مرة أخرى للتحقيق معه من جديد، في أسئلة روتينية مكررة؛ لعله يُغيّر في بعض إجاباته السابقة، وعادة هم ينتظرون من المحتجز أن ينفد صبره، ويتفوه بكلمات سيئة تُلزمه التهمة، وتُسجل ضده في محضر قضيّة خيانة وطنيّة.

وفي الأسبوع الثالث من احتجاز (إسماعيل) دخلت القوات الأمريكيّة والبريطانيّة الأراضي العراقية، عن طريق ميناء (أم قصر) في أقصى الجنوب، تحت غطاء جوي كثيف، زاحفة نحو العاصمة بغداد، كما توقع الكثير من المراقبين والمحللين السياسيّين، فانهار الأمن في

البلد بسرعة كبيرة وغير متوقعة بعد سقوط العاصمة بغداد، فدخلت من شرق العراق المليشيات (الفارسية) الحاقدة، التي بدأت تحرق الأخضر واليابس في طريقها؛ من أجل احتلال مدينة (البصرة) عسكريًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا وعقديًّا، وبسرعة قبل أن يستوعب أبناء الوطن المخلصين هذا الاحتلال، فعاثوا في الأرض فسادًا على حساب ابن العراق، فنهبوا كل ما في مكاتب المؤسسات الحكومية، تحت شعار سقوط الحكومة الخائنة، وكان أفراد الشرطة أول من هرب، واختفوا من مراكزهم ومن الشوارع الرئيسة والأماكن العامة، ومن الطرقات المحيطة بمؤسسات الدولة التي كانوا يحرسونها، ثم هرب في أعقابهم أفراد وحدات الجيش، تاركين مواقعهم المحصنة بقطع من العوارض (الكونكريتيّة) العملاقة، فسطا رجال المليشيات الفارسية الملثميّن بلحى طويلة وخفيفة، وملابس سوداء على كل ما خلّفوه من معدات ثقيلة وخفيفة، ومواقع إستراتيجيّة مهمة.

سمع كل من في داخل السرداب إطلاق نار كثيف، وسمعوا صوت دوي المدافع الرشاشة المضادة للطائرات، وصم آذانهم صوت قصف الطائرات الحربية بكثافة، فسقطت إحدى القذائف على مبنى الموقوفين نفسه، فانهار الجزء الخلفي منه بسرعة، فتراكض كل من في داخل (المبنى) هربًا لخارجه؛ خوفًا من انهياره وسقوطه عليهم كاملًا،

تاركين كل ما في عهدتهم من أسلحة، ومن ملفات سرية، ومن رجال محتجزين في داخل السرداب .. لم يفكروا وقتها بفتح الأبواب لهم للنجاة بأنفسهم؛ خوفًا من مسؤولية المحاسبة فيما بعد .. لم يكن في ظنهم أن المُحاسِب الكبير سيُحاسب .. كان ذلك اليوم عصيبًا على الجميع، وكأن القيامة قد قامت؛ فكل منهم يُفكر بنفسه .. نفسي .. نفسي.

تركوا هؤلاء الستة المحتجزين - بما فيهم (إسماعيل) - في ظلام السرداب الدامس بعد انقطاع التيّار الكهربائي عن مدينة (البصرة)، فعاشوا بدون أكل وماء لمدة ثلاثة أيام متواصلة، وهم يستغيثون الناس من خلف الجدار، بينما لم ينقطع عن سمعهم سقوط القذائف وشدة انفجارها التي عصفت في قلوبهم، ولم يقف صوت اطلاق الرصاص، لا في الليل ولا في النّهار، ولم يتوقف صوت هدير الطائرات المروحيّة التي تصم الآذان أثناء عبورها فوق المبنى، وفي اليوم الرابع سمع (إسماعيل) - ومن معه في السرداب - أصوات رجال في المبنى، كانوا يتواصون فيما بينهم على سرعة إنجاز العمل، تبين لهم فيما بعد أنّهم يتعاونون على سرقة ونهب كل ما في المبنى؛ من ملفات ومكيفات ومكاتب وكراسي وأجهزة كهربائية، وحمل كل شيء يقع تحت أيديهم، شريطة أن يكون قابلًا للحمل، فبدأ المُحتجزون في السرداب يُنادون عليهم بصوتٍ عالٍ؛ لعلهم يسمعون صوت ندائهم واستغاثتهم، فانتبه أحد اللصوص للصوت الذي

يُناديهم من داخل السرداب .. كان قريبًا جدًّا من الباب الحديدي للسرداب، فكسروا القفل، وأخرجوا من السرداب أربعة من الأحياء، كانوا في حالة يُرثى لها، واثنان منهم لم يتحمّلا العطش والجوع وشدة ألم المرض، فأخرجوهما جُثتين بدأتا تتعفن بسرعة.

فرك (إسماعيل) عينيه؛ كي يطرد غشاوة العتمة التي سببها المكوث تحت الأرض، في غرفة ضيّقة مظلمة لعدة أيام، كان الإرهاق باديًا على محياه، انعكس على شكل تجهم ارتسم في تقاطيع وجهه، وفي حمرة عينيه التي كشفت عن قلقه وقلة نومه، في حين كان تشقق شفته السفلى وتورمها يشي بتعرضه لحمى شديدة؛ ناجمة عن قلق نفسي شديد، وجفاف لعدم توفر الماء، فحمد اللهَ (إسماعيل) كثيرًا على أن الذين عثروا عليهم لصوصٌ، دفعتهم الفاقة وشدة الحاجة للنهب والسرقة، ولم يكونوا من أفراد المليشيات الفارسية الغازية، فبفضل الله ولطفه وكرمه لم يفتحوا معهم تحقيقًا عن سبب احتجازهم في السرداب، ولم يختطفوهم كرهائن مقابل دية من المال، ذهب (إسماعيل) لبيته مُسرعًا وقلبه يرعد قلقًا، ويُسابق خُطاه في مشيته، لا يعلم ما المفاجأة التي تنتظره، دخل منزله فوجد أطفاله يبكون جوعًا وخوفًا، أما زوجته فكانت في حالة يُرثى لها منذ يوم غيابه عنهم، تنظر إليه بدهشة واستغراب غير

مصدقة ما تشاهد عليه من أثر التعب والإرهاق والخوف، تتلمس وجهه؛ لتتأكد أنها ليست في حلم.

أخذت بوادر الخطر في المجتمع تظهر أعراضها تباعًا، فبدأت تنتشر في المجتمع أخبار عن الجرائم التي تُرتكب هنا وهناك، يوميًّا على مدار الساعة الواحدة بل الدقائق، منها تعرض عسكري متقاعد كبير في العمر لجريمة قتل، كان في طريقه إلى بيته، نجا من محاولة إطلاق نار عليه، فر من القتل بأعجوبة، فعمد ذلك العسكري بعد هذه الحادثة مباشرة إلى الفرار بأسرته، إلى مكانٍ آخر، تاركًا منزله بما فيه، أعقبه بعد أيام عدة تصفيات شرسة لموظفين سابقين في الدولة، خصوصًا الأكاديميّين والمثقفين والمتعلمين منهم، وتطاولت أيدي عناصر المليشيات الفارسيّة الحاقدة ومؤيدوهم على أئمة المساجد والجوامع في كافة أنحاء محافظة (البصرة)، وتسلطوا على رجال الدعوة الإسلامية في العراق، وتعقبوهم فردًا فردًا، فبعض منهم طُورد من بيت إلى بيت، وهو يستغيث بمن يلتقيه في الشارع، ولا من مغيث غير الله سبحانه له، وبعد جهد كبير من مطاردته، تمكنوا منه، فنحروه بدم بارد قرب بيته، بعد أن عجز عن الركض في الشوارع والطرقات؛ مذهولًا لمتابعتهم له. وسمع (إسماعيل) عن قتل رب أسرة من أقاربه، يقع بيتهم على مقربة من بيته، لطخت بقع دمه أسفلت الشارع العام لعدة أيام قبل جفافه.

وخيّم القلق والخوف على معظم أفراد المجتمع العراقي بصورة عامة، خصوصًا من لم يرفع راية المليشيات الفارسيّة وأذنابها، وبرزت بقوة ظاهرة اختطاف الرجال من بيوتهم ليُقادوا معصوبي العيون إلى جهات مجهولة؛ من أجل احتجازهم، فمنهم يُذبحون على الهوية العقديّة والعرقيّة، لذا خلت بعض الأحياء من سكانها تقريبًا، وأصبحت الأسر تتجمع مع بعضها البعض لتعيش في منزل واحد؛ خوفًا من سطوة الاعتداءات الشخصيّة، وبدأت المناوبات الليليّة المسلّحة في البيوت تتربص لأي اعتداء مباغت يقع في ساعات الليل، وتكفلت الفضائيات العربية والأجنبيّة وأجهزة الهواتف الذكية بفضح ما يجري في العراق من مآسٍ دمويّة مروّعة، تمثلت بمهاجمة الطوائف المتناحرة فيما بينها، وقتل متعمد في عز النهار، دون تفريق بين الرجال والنساء والأطفال، ناهيك عن التفجيرات التي أخذت أرواح الأبرياء من أطفال ونساءٍ، الذين لا ذنب لهم، هذا غير فخ الاختطاف الذي انتشر باحتراف، وتعمدت المليشيات الفارسية حرق بيوت الله وتفجير بعضها، وخطف خُطباء وأئمة المساجد ومرتادي العبادة والصلاة، ثمّ ذبحهم فيما بعد، ورمي جثثهم أمام أبواب بيوتهم، أو مساومة أهاليهم على دفع الفدية مقابل الإفراج عنهم؛ لذا فقد أصبح الخروج من البيت ضربًا من الخيال، ومجازفة في حياة الإنسان، ولا يمكن أن يخوض غماره أحد إلا عند

الضرورة القصوى التي تستدعي خروجه من منزله، رغم أنّ غالبية الدكاكين والمحلات مقفلة، لا يُجازف أصحابها بفتح محلاتهم، إلا عدد قليل منهم، ويحرصون على إبقاء أبوابهم مفتوحة إلى النصف، وهم يتلفتون حولهم بقلق وحذر.

قامت كثير من النساء العراقيّات بواجبات التسوق للبيوت، وتوصيل الأبناء للمدارس، التي تعطلت لعدة أيام؛ بسبب الفوضى التي سادت البلد، ولقد سوّقت المليشيات القادمة من الشرق لأنصارهم من أهل العراق مشروع جواز السلب والنهب للممتلكات العامة، وتلف كل ما يقع تحت أيديهم من ملفات للحكومة السابقة، واعتبرت مثل هذه الأعمال حقًّا مشروعًا لكل مواطن عراقي شريف. فنُهبتْ الجامعات بعد أن اغتُصبت دروس العلم فيها، وتعطلت جميع أجهزة الدولة عن العمل، بما فيها الأجهزة المتعلقة بمنافع المواطنين، فبذل بعض العراقيين الشرفاء المخلصين لبلدهم قصارى جهدهم؛ من أجل إعادة تيّار الكهرباء، وسرعة تدفق الماء للمدن والأحياء السكنيّة مرة أخرى.

❋❋❋

(2)

بعد سرعة انفلات الأمن، وغياب الحس الوطني العراقي في خضم الكراهيّة الطائفيّة من قبل المحتل الفارسي، وضياع المشاعر الإنسانيّة الواعية، في مجتمع روجوا فيه سهولة القتل والتفجير والنهب - قرر (إسماعيل) الهرب مع عائلته من جحيم التصفيات الطائفيّة والمذهبيّة للأردن بدون جوازات سفر، عبر القُرى الكثيرة المتاخمة للحدود العراقيّة الأردنيّة، في انتظار أن يشبع الناس من القتل والتفجير، ثمّ يعودوا.

بدأ يتهيأ نفسيًّا وماليًّا للسفر، ويسأل من يعرف وبسرية تامة عن سماسرة هذا الطريق غير الشرعي، وعن قيمة تكلفة الرحلة لعائلته، وعن عدد الساعات التي تستغرقها مثل هذه الرحلة، وفي خلال أيام تم له

ما أراد من هدف، فعثر على السائق الثقة الذي سيقوم بهذه المهمة، فإسماعيل يعرف جيدًا بأن قُطّاع الطُرق قد نشطوا في الآونة الأخيرة، وأصبحت مهمتهم تجارية؛ إذ لا يكاد يمرُّ يوم لا يسطون فيه على سيارة، سالبين أصحابها نقودهم وأمتعتهم، هذا إن لم يخطفوهم لغرض مساومة أسرهم في دفع ما يقررون من فدية لقاء إطلاق سراحهم. فأصبح سفر الأفراد بسيارتهم الخاصة غير مأمون بعد دخول المليشيات الغازية، إنما تتم سفراتهم برحلات جماعية، على شكل قوافل تتكون من بضع سيارات، بحراسة رجال مدججين بالسلاح؛ من أجل ضمان الأمن للمسافرين، في أثناء اجتيازهم للطرقات البرية بين المدن.

تلقى كل من ثائر وثامر خبر هذه السفرة المفاجئة بشيء من الدهشة والاستغراب؛ بسبب ما لاحظاه في ملامح أمهما من عصبية وتوتر شديدين وهي تتحدث مع أبيهما، مع شدة تأكيد والدهما على عدم إخبار أحد من الأقارب والجيران بهذه السفرة المفاجئة، فبدأ (إسماعيل) وزوجته (فاطمة) ببيع ممتلكات بيتهم؛ بحجة الانتقال لبغداد، من أجهزة كهربائية ومكيفات وأثاث منزلي بأسعار بخسة.

انطلقت رحلة هجرة الشقاء بخروج (إسماعيل) من مدينة (البصرة)، وفي خلال يومين من السفر بالسيارة وجد (إسماعيل) نفسه

مع عائلته في إحدى القُرى الأردنية الفقيرة جدًّا، التي يُرثى لحال أهلها .. يعيش أهل هذه القُرى الكثيرة حياة بدائية على منتجات مزارعهم البسيطة، من محاصيل نباتية ومنتجات حيوانية، ممتدة على طول الشريط الحدودي بين البلدين، شهدت هذه القُرى صدامًا عنيفًا بين جيوش الإمبراطوريتين الفارسيّة والرومانيّة أيام العصور الغابرة، وكانت مسرحًا لهم للاقتتال فيها، وفي العصر الحديث يُحاول كل من الأردن والعراق دفع سكان هذه القُرى للبلد الآخر بشتى الوسائل؛ كي يتهرّب حُكام البلدين المتجاورين من الالتزام بمعيشتهم وكفالة رعايتهم .. مكث (إسماعيل) وعائلته في القرية لعدة أيام، وهم يتوارون عن أعين الناس، في انتظار مجيء السيارة الأخرى التي تنقلهم إلى العاصمة الأردنيّة (عمّان) بأمن وأمان، حسب اتفاقهم مع السائق الذي أتى بهم من مدينة (البصرة)، الذي كان واضحًا لا لبس فيه، السائق لم يفصح لهم عن اسمه، ولم يُكلف (إسماعيل) نفسه بالسؤال عنه، قال هامسًا في أذن (إسماعيل)؛ كي لا تسمع عائلته: (لا تتركوا المكان مهما حدث، وإذا حدث شيء سوف أرسل لكم من يُخبرك ويساعدكم)، وها هم ينتظرون سماع صوت سيارة تدخل المزرعة، وها هم ثابتون حسب التعليمات، لا يتحركون داخل المزرعة كثيرًا، لكن السيارة لم تأتِ، ولم يُرسل لهم أحدًا يُخبرهم بما حدث، وكانت ضيافتهم عبئًا ثقيلًا على مُضيّفهم؛ بسبب الحاجة

والفاقة التي يُعاني منها هذا المُضيّف، الذي لا يعرفون عنه شيئًا غير كنيته (أبو هاني)، إضافة لسبب آخر، وهو ندرة مواد التموين في القرية، رغم أن أبا هاني قد قبض قيمة استضافتهم ورعايتهم والإشراف على راحتهم لمدة أسبوعين، مقدمًا من صاحب السيارة التي جاءت بهم، فتضاعف قلق زوجته (فاطمة)، وبدأ اختلال مشاعرها ينقلب إلى سلسلة من الأفعال الغريبة جدًّا، فطول الوقت ظلت تهذي بحكايات سمعتها من الجارات، عن سماسرة قطاع الطرق والمجرمين، ولا يعرف (إسماعيل) صدق مثل هذه الروايات من كذبها .. قصص فيها مبالغات مجالس النساء، وربما تكون غير واقعية، ومن نسج الخيال، لكن (إسماعيل) يُدرك تمامًا بأنّ قلق زوجته (فاطمة) لا يختلف كثيرًا عن قلقه هو، عدا أنّ زوجته تستطيع أن تُعبر عن ما يجول في نفسها بطريقتها الخياليّة الخاصة، الخالية من كل منطق حقيقي.

- يا فاطمة، إذا وجدتِ نفسك غير قادرة على الاحتمال والصبر، يمكن أن أذهب لأقرب مدينة، ونستأجر سيارة خاصة ونعود للبصرة.

قال ذلك (إسماعيل) لزوجته (فاطمة) متصنّعًا جديته في معرفة رأيها، فهو يُريد أن يختبر مقدرتها على الصمود والانتظار، لا أن يحثها على العودة للبصرة مرة أخرى؛ فهو لا يعلم ماذا سيواجههم في هذه الرحلة في

قادم الأيام، فمن المحال التنبؤ بما سيحدث لهم، فكل شيء ممكن حدوثه في مثل هذه الأماكن النائية، البعيدة عن الرقابة الأمنية .. لم تجبه زوجته (فاطمة) التي كان وجهها كلون الليمونة الصفراء، وكأنها مصابة بداء الأطفال (أبو صفار)، لكنها كانت في داخلها تغلي كإبريق ماء فوق النار، تزفر الهواء من منخريها الضيقين، وأحيانًا من فمها الصغير، ثمّ انخرطت في موجة عارمة من البكاء الحاد، ثمّ فجأة توقفت عن البكاء، ومسحت عينيها عن بقايا الدموع المنهمرة وقالت ضاحكة:

- أنا أعرف سبب سؤالك، تُريد أن تختبرني يا (إسماعيل)، أليس كذلك؟

- أختبر ماذا يا (فاطمة)؟

- صبري ومقدرتي على الاحتمال.

- أنا أعرض عليك، ولا أختبر مقدرتك على قوة الاحتمال .. أعرض عليك أن تختاري بحريّة تامة، بعد أن رأيتِ جزءًا بسيطًا من صعوبة هذه الرحلة.

- لكنك تعرف بأني امرأة، وقوة تحمّلي ضعيفة، ليس مثلكم أيها الرجال.

وفي اليوم العاشر جاءهم الفرج، وشاهدوا ملامح سيارة زرقاء تدخل المزرعة، من نوع (بيك آب)، ذات لوحة أردنية، ليس من السهل قراءة رقم لوحتها، يقودها رجل ضخم نوعًا ما، طغت على لهجته نبرة أهل بادية الشام، ذو عينين ملونتين جميلتين، يشبهان عينيّ دُمية طفلة صغيرة، وإن ضحك كشف عن منابت أسنانه المسودّة؛ بفعل إدمانه تدخين السجاير.

في اليوم الثاني من وصول صاحب (البيك آب) للقرية، وعقب صلاة الفجر مباشرة، حشر (إسماعيل) وعائلته في المقعد الأمامي لسيارته، في كبينة القيادة، وعبأ صندوق (البيك آب) من منتجات مزارع القرية، متوجهًا لمدينة (عمّان)، عبر طريق طويل يعرفه جيدًا، جزء منه تُرابي لا يخلو أبدًا من الحُفر وتناثر الأتربة خلف (البيك آب) .. في بعض الأحيان يمر بمدن صغيرة وقُرى كثيرة؛ كي يتجنب - في خط سيره - نقاط التفتيش المفاجئة، وصناديق مراكز الشرطة المزروعة بكثرة في طريقه، والتي يحفظ أماكن تواجدها غيبًا، ومع صوت أذان العشاء لليوم نفسه، يصل (البيك آب) ومن فيه بسلامة للساحة (الهاشميّة) المزدحمة بالمتسوقين، فاتصل (إسماعيل) بابن خاله مازن (أخو زوجته فاطمة)، الذي رحب باستضافتهم في شقته لعدة أسابيع .. مازن سبقه

بعام في الهجرة للأردن بعد معاناة مريرة مع النظام، ومنذ وصوله عمل كاتبًا في أحد فروع شركة التأمين الأردنية.

وفي أول يوم حط (إسماعيل) فيه رحاله بمدينة (عمّان) - التي يزورها لأول مرة في حياته - بدأ يبحث له عن عمل مناسب يليق بشهاداته العلميّة وخبراته العمليّة، في بلد شَحَّتْ فيه فرص الوظائف على أبنائه، فسارع (إسماعيل) بتقديم شهاداته وخبراته على الجامعات والمعاهد العلميّة في عمّان، وفي خارجها من المدن الكبيرة الأخرى، ولم يترك بابًا من أبواب الشركات والمؤسسات العلميّة الموجودة في الأردن إلا وطرقه وحاول معهم، ولكنه لم يجد بصيص أمل لوظيفة شاغرة، فوضع شهاداته الجامعية وخبراته النفطية في الجيب الداخلي لحقيبة السفر الكبيرة حتى إشعار آخر، وقرر النزول للساحة (الهاشمية) المشهورة في (عمّان)، وأن يعمل مثل بقية إخوانه العراقيين، الذين يحملون الشهادات الجامعيّة، الذين لم تشفع لهم شهاداتهم ليجدوا عملًا مناسبًا، غير انخراطهم في التجارة العامة (البيع والشراء) في الأسواق المحلية، أو استثمار أموالهم التي جلبوها معهم في العقارات، التي نشط عزمها بقوة شرائهم لها؛ لذا وجب على (إسماعيل) أن يقوم بدراسة السوق، ومعرفة حاجته، ليجد له فرصة عمل مناسبة فيها.

رأى بعض العراقيين الذين يتجولون بين المقاهي والأسواق الفرعية، ويعرضون بضاعتهم التي يحملونها بأيديهم على المارة وأصحاب المحلات، مثل الساعات وألعاب الأطفال والملابس، وبعض منهم افترش الأرض بقطعة قماش، في ظل غياب مراقبي البلدية في ساعات الليل، يبيعون كل ما يتكسبون منه، ورأى أحد العراقيين يحمل صندوقًا بداخله (خواتم ومسابيح)، فأعجبته فكرة المتاجرة في هذين الصنفين، يستوردهما من الخارج ثمّ يقوم ببيعها بالجملة والمفرق، فهي من ضروريات الرجال، وتمس حاجتهم، فلمعت الفكرة في ذهن (إسماعيل)، واتقدت لحيز التنفيذ، رغم عدم معرفته الجيدة بتجارتها، وعلاوة على ذلك، أنه لا يُريد المغامرة برأس ماله الذي جاء به من العراق، لكنه تذكر سريعًا زميله (مهدي)، الذي درس معه أربع سنوات في الجامعة (المستنصرية) بالبصرة، القادم من مدينة (كربلاء)، كان من زملائه المقربين، وكانت علاقته به أكثر من جيدة، ولم تنقطع علاقته به بعد الدراسة الجامعيّة، ولطالما حدثه في لقاءاته عن مشروع والده، الذي يمتلك معملًا صغيرًا لصناعة (المسابيح والخواتم) بكافة أنواعها في مدينة (كربلاء)، ويقوم بتوزيع منتجاته داخل العراق وخارجه، كقطع أولية، أو مسابيح جاهزة للبيع في المحلات، فقرر التواصل مع (مهدي)

سريعًا، وتنشيط علاقته به من جديد، ومحاولة طلب مساعدته في تمويل من مصنعهم، على أن يتم السداد فيما بعد.

تم لإسماعيل ما أراد، فعثر على عنوان زميله (مهدي)، وتواصل معه، فوجد مهدي يدير المصنع بعد وفاة والده، الذي تعرض لمرض السرطان في الرئتين؛ بسبب إدمانه للسجاير، فدخله الفرح والسرور واستبشر خيرًا، وبذكائه المتقد وفطنته الحاضرة، تمكن من معرفة أشهر مصانع (المسابيح) ومراسلتهم، في كل من الموصل وكربلاء ومصر وسوريا وتركيا، وعرف أغلى أثمانها وأجود أنواعها، مثل نوع (الكهرمان) الألماني والبولندي والروسي، واكتشف بأن (الكهرمان) عبارة عن إفرازات لمواد طبيعية لشجر، مثل افراز مادة (الصمغ)، وتعرّف على نوع (السندلس) الألماني، وتمكن من تمييز بعض الأنواع الأخرى، مثل (الفاتوران) الألماني، الذي يُعتبر أغلى الأنواع قاطبة، و(الكوك) و(المرجان) و(الفيروز) النيّسابوري و(الأبانوس)، وعرف بأن نوعي (الكوّك) و(الأبانوس) من أنواع الخشب، و(الكوّك) ثمرة شجرة مشهورة تُزرع في كل من تركيا والهند، أما خَيط (المسبحة) فعادة يكون الجيد منه ياباني الصنع أو كوري، والشائع منه يأتي من الصين، وهذا النوع الرخيص يستعمله (إسماعيل)، أما (كراكيش) المسبحة فيأتي بها من سوريا

وإيران والكويت، أو من السوق المحلية في بعض مدن الأردن التي تقوم بتصنيعها، أما الخواتم الفضية فأشهرها التي تأتي من مصانع إيران وتركيا والعراق.

اتفق (إسماعيل) في بداية تجارته مع زميله (مهدي)، على إرسال مقاسات مختلفة من أنواع (الخواتم) ذات الأحجار المختلفة؛ من فيروز وعقيق ومرجان وزمرد وجاد وزفير وزركون، والتي عادة تُصنّع من الفضة الخالصة، ومتجنبًا تجارة المخلوطة منها، وإرسال معها أنواع مختلفة من خرز (المسابيح).

بعد مرور عدة أسابيع من وصول عائلة (إسماعيل) لمدينة عمّان، طرقَ عليهم صاحب المكتب العقاري (أبو ياسر) الباب مساءً؛ ليخبر مازن عن ضرورة إخلاء الشقة، بسبب إخلاله بشروط العقد المبرم بينهما، الذي ينص في أحد بنوده على عدم استضافة عائلة أخرى معه في الشقة، فحاول مازن إقناعه بأن المسألة مجرد وقت، وكلها كم يوم ريثما أخته وزوجها (إسماعيل) القادمان من (البصرة) يُرتبان سكنًا مناسبًا لهم، لكن أبا ياسر لم يقتنع بتبريره العائلي وشفاعته الإنسانية، وأصر على إخلاء الشقة قبل نهاية الأسبوع، أو سيضطر آسفًا أن يرفع عليه

قضية يتحمل فيها كافة تكاليف مصاريفها القانونية، وهكذا هم المستثمرون في العقار، لا تجلد إحساسهم المشاعر الإنسانية.

فما كان من (إسماعيل) ومازن إلا الانتقال لعمارة أخرى في أحد الأحياء الجديدة البعيدة عن مركز المدينة، يملكها أحد الأثرياء العراقيين القادمين من مدينة (بغداد)، وجدا فيها شقتين متجاورتين في الدور الثالث من العمارة، التي كان معظم مستأجريها من العراقيين.

ضاقت نفوس الأردنيين برؤية كثرة المهاجرين من العراق، وتزايد عددهم بصورة واضحة في ضواحي مدينة عمّان وغيرها من المدن الأردنية الأخرى؛ بسبب ظروفهم القاسية التي يمرون بها في بلدهم (العراق)، بداية من حصار عالمي (تجويعي)، أكل ما لديهم من أخضر ويابس، ثمّ نتيجة دخولهم في حربين طاحنتين ماحقتين، قتلتْ أبناءهم، وبعثرتْ ثرواتهم، وجعلت (العراق) يتراجع مئة عام، وهكذا هي الحروب ونتائجها في العالم، مثلما شخّصها تُولستُوي بقوله: (إنّ الحروبَ قذرة)، أما (فرويد) عالم النفس المشهور فيرى أن في الشر تجسيدًا لما يُسميه (غريزة الموت)، كنقيض لغريزة الحياة، ويظل الشر معلمًا بارزًا من معالم الحياة البشرية في كل العصور، ويتجلى بأسوأ أشكاله بالحروب (التدميريّة)، والسعي المحموم لاختراع أكثر أنواع الأسلحة فتكًا؛

كالأسلحة النوويّة والبيولوجية والكيماوية، وغيرها من أسلحة الدمار الشامل، والإنسان - بصورة عامة – جشعٌ، لا يشبع أبدًا من إراقة الدماء والتجويع البشري .. بعد الغزو الغربي الشرس ارتفعت درجة غليان التصفيات الجسدية التي اجتاحت البلد من شماله لجنوبه، ودخلوا في صراعات طائفية ومذهبية لا حصر لها، امتدت على مساحة خارطة (العراق) بتمويل مذهبي طائفي (فارسي)، فبدأت مشاعر الكراهية والحقد تتسرب لقلوب الأردنيين من بوابة الحسد؛ نظرًا لنشاطهم التجاري في الأسواق المحليّة، ولفت نظر المواطنين الأردنيين سرعة تكاثرهم في المناطق السكنية التجارية والأسواق العامة، فخافوا من ظاهرة نقل موروثهم السياسي والشعبي والاجتماعي الحضاري، من فكر وعادات وتقاليد لمدينة (عمّان)، وجعل واجهتها عراقيّة؛ ومن ثمّ ضياع الموروث الأردني في زحمة كثافة هجرة الموروث العراقي، حتى ظن كثير من الأردنيين، أن وجود العراقيين في البلاد يُعتبر سببًا رئيسًا في التضخم الكبير الذي تشهده الأردن، وعلق بعض الوطنيين المتطرفين منهم وقال: إن العراقيين هم من يقف خلف ارتفاع أسعار العقارات والمواد الاستهلاكية في الأردن بصورة عامة .. لقد جاءوا بمبالغ ضخمة من بلدهم، دخلت بعض أموالهم بطرق شرعيّة ونظاميّة، عن طريق مكاتب

الصرافة وحوالات من الحسابات المصرفيّة، وبعضها دخلت عبر وسائل غير مشروعة؛ من أجل استثمارها في الأردن.

لذا قامت الحكومة الأردنية بعدة إجراءات نظامية رسميّة جديدة، بإيعاز من عناصر القوى الوطنية المؤثرة في الدولة، أدت إلى مضايقة كل المقيمين في الأردن، ومنهم المهاجرين العراقيين، فكانت بداية هذه الوسائل فرض رسوم على الإقامة الرسمية لكل عراقي، سواءً أكان صغيرًا أو كبيرًا، رجلًا أو امرأةً، وسواءً أكان عاملًا أو عاطلًا عن العمل، أسوة بباقي الجنسيات العربية الأخرى، ثمّ تبعتها مضايقات أخرى، منها استثمارية وتجارية ووظيفية وعقارية، فطالت هذه الإجراءات كل العراقيين المقيمين في الأردن دون استثناء، تضرر منها الفقراء والمحتاجون كثيرًا، فساعدت مثل هذه التصرفات غير المدروسة من قبل المخلصين للأردن على فكرة هجرة الكثير من العراقيين للمدن القريبة من جارتهم سوريا، التي شرّعت حكومتها أبوابها لهم دون مطالبتهم بإقامة رسمية؛ لتظهر حسن النيّة، والصورة الجميلة لعلاقة حسن الجوار بين الشعبين الجارين أمام العرب والعالم والأمم المتحدة على وجه الخصوص؛ كي تنتعش اقتصاديًّا من التحويلات المالية الكبيرة لبنوكها المحليّة، فيما يخص المستفيدين العراقيين من المشروع الجديد المُسمى (النفط مقابل الغذاء

والدواء)، بعد أن تمّ إقراره، وظهوره بصورة رسميّة شرعيّة، وانتعاش جدية تطبيقه بصورة واضحة جدًّا أمام رجال الأمم المتحدة، المنتشرين في المنطقة، ومراقبتهم لسير برنامجه في صرف معاشات للمهاجرين العراقيين من ريع العوائد النفطية، وبالحد الأدنى الذي يكفل فيه معيشة العراقي اليوميّة خارج وطنه، وكأنها عملية متعمدة من قبل الأمم المتحدة؛ من أجل تشجيع العراقيين على الهجرة، وترك بلدهم لأفراد المليشيات الغازية؛ من أجل تغيير نوعيّة التركيبة السكانيّة فيه، وخصوصًا المذهبية منها.

❋❋❋

(3)

بعد أن نجح (إسماعيل) في مشروع تجارة (المسابيح والخواتم) نجاحًا باهرًا، وبدأ في توزيعها خارج مدينة عمّان لمدن أخرى في الأردن، وجد نفسه مضطرًّا للهجرة مرة ثانية مع بعض أقاربه لمدينة (درعا) السوريّة؛ بسبب مضايقات الحكومة الأردنيّة التي تعرضوا لها، وبعد سماعهم بترحيب الحكومة السوريّة بأعلى صوتها في قدوم المهاجرين العراقيين إليها، وفتح الباب لهجرتهم وتشجيعهم عليها، وتقديم كافة التسهيلات لإقامتهم، فهاجر (إسماعيل) وعائلته لمدينة (درعا)، وتمكن من الاستفادة من مشروع الأمم المتحدة، فنال الدعم المالي والصحي والتعليمي لابنيه ثائر وثامر.

لم يستفد (إسماعيل) من حصيلة خبراته التي كسبها في تجارة (المسابيح والخواتم) عند وصوله لمدينة (درعا) بسوريا، فالمصانع في سوريا كثيرة؛ بل فيها منافسة كبيرة في الأسعار؛ لذا فكر في مشروع (مطعم كباب)، فاستأجر مطعمًا كان معروضًا للتقبيل على الطريق السريع المؤدي إلى العاصمة (دمشق) .. كان المطعم بحاجة لصيانة وعدد من العمالة لتشغيله من جديد .. يبعد مكان المطعم عشرين كم عن مدينة (درعا)، وظل (إسماعيل) يكافح في هذا المشروع المتعب جدًّا من أجل نجاحه، فاستهلك جزءًا كبيرًا من جهده ووقته ورأس ماله، وبقي يديره حتى قيام عاصفة ما يُسمى بالربيع العربي في سوريا، التي انطلقت شرارتها الأولى من أحد شوارع مدينة (درعا)، فتعاملت الحكومة السورية مع ما حدث من ثورة شبابية برعونة وغباء وغطرسة وغرور؛ ظنًّا منها أنّها ستقمعها منذ ساعاتها الأولى .. ظنوا أنّ سوريا ليست ليبيا؛ لذا سارعت الحكومة - مدعومة بمشورة رأي الخبراء الروس - بإرسال وحدات الجيش لمدينة (درعا)؛ لمحاصرتها بدباباته ومدرعاته العسكريّة وأسلحته الثقيلة؛ لمحاولة اجتثاث برعم التمرد من جذوره، لتعيش مدينة (درعا) في حالة حصار عسكري من كل الجهات، مع فرض حالة الطوارئ في البلاد، وكل هذه العواصف الشبابية المغرر بها، التي اجتاحت البلاد العربية من غربه بداية، ثمّ واصلت زحفها لشرقه، ومنذ

بداية انطلاقها من أرض تونس الخضراء، والتي سُميت فيما بعد (بالربيع العربي) ما هي إلّا همًّا وغمًّا على الأمة العربية والإسلامية، لم تجنِ منها غير الشر والدمار؛ لتضيف رصيدًا جديدًا من التخلف والضياع في الفكر والمنهج، وفي كل مناحي الحياة العامّة، هذا إن لم تكن هي بذاتها مخططًا صهيونيًّا يهوديًّا عالميًّا، نفذ سيناريوه شباب العرب ومن وقف خلفهم في الكواليس بغباء وسذاجة، وقدموه هدية لساسة الغرب دون وعيٍ وإدراك، فأدت المظاهرات الشوارعيّة الغوغائيّة إلى تخلف الدول التي طالها هذا (الربيع) على كل المستويات والأصعدة، ناهيك عن تمزقها داخليًّا لفرقٍ وأحزابٍ وجماعات وطوائف متعددة وكثيرة، تتناحر وتتقاتل فيما بينها على أتفه الأسباب، عقب سقوط الحكومات العسكريّة الدكتاتوريّة؛ من أجل الوصول للسلطة بأرخص الأثمان، وبأسرع الطرق، فأصبحت هذه الدولة لقمة سائغة لمشروع تقسيمها، بناء على مفهوم عرقي كريه، أو مذّهبي طائفي نتن، وهذا ما يسعى إليه إسرائيل والغرب الصليبي ومن دار في فلكهما، عندها دقت ساعة الهجرة للمرة الثالثة في حياة (إسماعيل) وأسرته، وعزم هذه المرة على التوجه لتركيا، التي فتحت أبوابها للمهاجرين السوريين بداية، فهاجر إليها (إسماعيل) قبل زحمة هجرة السوريين، والهجرة مثل دودة بالروح، تنخر فيها دون شعور منا، وعاش (إسماعيل) حياة التنقل في تركيا من

مدينة إلى مدينة أخرى؛ بحثًا عن عمل في مدينة تُناسبه، ليستقر فيها مع عائلته، فوجد وظيفة مدرس لغة عربية في مدرسة أهلية لتحفيظ القرآن، في أحد جوامع مدينة (سقاريا)، التي تُعتبر أحد معاقل المهاجرين العراقيين في تركيا، وفي أحد جوامع مدينة (سقاريا) شاهد زميله (عبد الكريم)، الذي لم يره منذ أكثر من ربع قرن .. كان (عبد الكريم) يتردد في زياراته على تركيا بين فترة وأخرى، يمتلك مكتبًا عقاريًّا في مدينة الرياض بحي الروضة، ويُتاجر في العقار بتركيا .. يُنفذ مشاريع مجمّعات سكنية، في (طربزون) و(سابنجا) و(المعشوقية) و (الرفيعة) و(يلوا)، وبعض المدن الأخرى المطلة على البحيرات، ثمّ يقوم ببيعها على معارفه وأصحابه وبعض زبائنه في السعوديّة، بعد أن هبت هجرة رياح رؤوس الأموال السعوديّة والخليجيّة؛ من أجل استثمارها بتجارة العقار في مدن تركيا، التي تتمتع بأمن اقتصادي يُشجع المستثمرين الأجانب، يسود مناخه الاستقرار وعدم التذبذب السريع في الأسعار، كما أن أجواء مدنها تتميّز بمناخها الجميل ذي درجات حرارة متدنية في أيام الصيف، علاوة على ذلك حب الشعب التُركي للإسلام والمسلمين، فاشترى الخليجيّون (فُللًا) داخل مجمّعات و(شُققًا) في عمائر بالمناطق السياحيّة الكثيرة في تركيا، خصوصًا تلك المدن التي تطل على البحيرات منها ولو من بعيد.

(4)

خرج (عبد القادر) من منطقة إجراءات الجمارك والجوازات يدفع عربة محملة بثلاث حقائب؛ إحداها لجهاز (الحاسوب)، فانقض عليه (إسماعيل) ليعانقه بعد غيبة طويلة بذراعٍ واحدة، بينما الذراع الأخرى كانت تحمل كيسًا صغيرًا يعبق برائحة القهوة الأمريكيّة النفاذة .. إنهما لم يلتقيا منذ أكثر من ربع قرن، بعد أن تمكن الزمن بجدارة في أداء مهمته، من رسم خطوط خرائطه البشعة في ملامح وجهيهما، وفي حركة جُرم جسميهما الضخمين؛ فقد أصبحا بطيئين في مشيتهما كأنهما دبٍّ كسولٍ، إلا أن أنف (عبد القادر) قد حافظ على مسافة ابتعاده عن سطح وجهه، كسارية يرفرف فوق قمتها علم، عند قاعدة الجندي المجهول. حاول (إسماعيل) بكل أدب دفع عربة

الحقائب عن صاحبه (عبد القادر)، فرفض (عبد القادر) عرضه، مصرًّا على مواصلة دفعها بنفسه، فقال (إسماعيل) له:

- ليس لدينا وقت كافٍ لنجلس في المقهى، طلبتُ لك كأس قهوة وقطعتين من (سميت) سفري، تتناوله في مشوار طريقنا الذي لا يقل عن الساعتين، إن لم يكن في طريقنا زحمة سيارات فوق جسر (الفاتح)، أعرف السعوديين جيدًا، إنّهم يعشقون كل أنواع (سميت).

- شكرًا (سُمعه)، وهذا كرم ولطف منك.

دفع (عبد القادر) العربة أثناء سيره بجانب (إسماعيل)، وهما يتوجهان لموقف سيارات المطار، فوضعا الحقائب في صندوق السيارة، فبدأت الرحلة إلى مدينة (سقاريا)، التي يُقيم فيها (إسماعيل) منذ سنوات، فالتفت (إسماعيل) على يمينه محدثًا زميل طفولته وشبابه (عبد القادر):

- يا (قدوري)، هل تعلم بأني لم أحتفظ بالصداقات التي اكتسبتها في (البصرة) إلا بصداقتين أساسيتين؛ الأولى مع أخي (كرم)، والثانية معك يا (قدوري)، أما في أيام الهجرات الثلاثة فكان الوضع والظروف لا يسمحان لي أن أبني صداقات جديدة في خضم مشاغل الحياة

ومسؤولياتها الكثيرة، ولا يمكن أن أجعل أحدًا يتدخل في شؤون حياتي في مثل هذا العمر.

- هكذا هو الإنسان (يا سُمعه)، كلما يتقدم في العمر تتقلص دائرة معارفه وأصدقائه .. شكرًا لك أن حافظت على عزم صحبتي وأخوتي.

- هيا .. الآن حدثني يا (قدوري) عن رحلتك في هذه الحياة، أو قل مسيرة حياتك في ربع قرن من الزمان.

- من أي مرحلة تُريدني أن أبدأ معك؟ من الروضة؟

- من حيث تحب وتشاء يا (قدوري)، ومرحلة حياتك أيام الروضة أعرف حكايتها، كنتُ رفيقك في تلك المرحلة، وجلستُ معك بنفس الطاولة، وأذكر جيدًا يوم فعلتها على نفسك في أول يومٍ لك، وأذكر جيدًا ذلك الطفل المدلل بين أقرانه وأصحابه، ذا الشعر الناعم الطويل، الذي يظهر لنا في كل يومٍ بأناقة جديدة، ولبسه الأحمر والمزعفر.

- المشيئة بيد الله سبحانه يا (سُمعه)، والذكريات حياة جميلة، نتذكر فيها أحلى اللحظات، هل تذكر تلك (العرّافة) التي اسمها على ما أذكر (قندة)؟

- نعم يا (قدوري) أذكرها جيّدًا، التي ضحكنا عليها أيام الشباب (أنا وأنت وكرم)، عندما كنا جلوسًا عند باب منزلكم، تحت مظلة الباب الكبيرة، في ظهر يوم قائظ شديد الحرارة، من أيام شهر تموز اللاهب، أظن كنا في مرحلة الثانوية، فمرت علينا في ذلك اليوم (العرّافة) التي تُفضل مناداتها بقندة، اتفقنا معها أن ترمي لنا (الفأل)، كما تُسميه (قندة) في عُرف (الدجالين والمشعوذين)، فوافقت أن ترمي لنا نحن الثلاثة بثلاثة (دراهم)، وعادة (قندة) تتسكع منذ الصباح الباكر بين طُرقات وأزقة الأحياء الضيقة في المدينة؛ بحثًا عن من يطلب منها قراءة (الفأل) لمستقبله، أو من تُريد أن تشتري من بضاعتها الخاصة في مستلزمات النساء. ويومها كنت أنت الأخير يا (قدوري) من بيننا الذي رمت له فأله، كانت (قندة) خبيرة في نفوس البشر وفي نوعية سلوكهم، سريعة البديهة، وتقرأ تصرفاتهم وطبائعهم بسرعة من خلال ملابسهم وطريقة حديثهم ونبرات أصواتهم.

- نعم .. أحسنت لقد كنتُ الأخير بالفعل، هل تُصدق يا (سُمعه)، لا زالت صورة ملامحها القبيحة وأشباهها البشعة عالقة في ذهني منذ ذلك اليوم .. أذكرها تقترب من نهاية الأربعين، لم أنسَ ثوبها المتعدد الألوان الفاقعة، وكأنها إحدى العارضات في مهرجان (سرك)، وعباءتها السوداء

الطويلة الساقطة من قمة هامتها على جسدها، وتتحزم فيها من منطقة الوسط؛ كي لا تعثر بطرفها عند مشيتها، كاشفة بذلك مفاتن نصف جسمها الأسفل، عاصبة رأسها بفوطة سوداء اللون، شُدت إلى مستوى الحاجبين، وضعتْ في جهتها الأمامية كمية كبيرة من (القطن)؛ كي تتحمل مقدمة رأسها وزن (الصرة) الثقيل، التي عادة تحملها خلف ظهرها لمسافات طويلة، وأذكر جيدًا وجهها الأسمر الذي دعك ضوء الشمس لونه فتقشرت جلدته، وأذكر صورة (قندة) جيدًا كأنها أمامي الآن، لم يسلم وجهها من رسم (الوشمات) ذات اللون الأخضر، كانت تُصرُ على تلوين عينيها بكمية كبيرة من الكحل ليزيد من بشاعة نظرتها، وإن تكلمت كشف لنا فمها عن أسنانها الصفراء، التي لا تعرف فرشة تنظيف الأسنان .. وأستغرب يا (سُمعه) من تلك الخواتم الفضية الكبيرة الفصوص، التي تلمع في أصابعها، وكثرة المعاضد الحديدية الملونة في ساعديها، وتلك (الصرة) الكبيرة التي تحملها خلف ظهرها، رفعتها بعقدة رباط من مقدمة رأسها، تحوي بضاعتها النسائية المتنوعة.

- نعم .. أذكر يا (قدوري)، وأذكر كيسها الأبيض الصغير الممتلئ بقطع القواقع والمحار وشيء من الخرزات المتنوعة من حيث الحجم

واللون، وبعض الخيوط القصيرة الملونة الصغيرة جدًّا، وبعض قطع العظام، ودبابيس وإبر وقطع حديد صغيرة، بعضها أكله الصدأ، وأعواد كبريت مكسورة، وأشياء أخرى مثل الحبوب الغذائية، من فول وحمص وعدس وماش ورز، وهل تذكر ما قالت لي بالضبط يا (قدوري)؟

- نعم أذكر بالتفصيل يا (سُمعه)، كأنه حدث في الأمس القريب جدًّا، عندما سألتنا عن أسمائنا وأمنياتنا في الحياة بداية، وكأنها تؤسس قاعدة معلومات أولية لها عن كل واحدٍ منا، ثمّ فتحت كيسها الصغير، الذي أخرجته من تحت حزام بطنها، وهي تتلفت بعينيها الخائفتين القلقتين ذات اليمين وذات الشمال، تدوران في محجريهما، باحثتين عبثًا عن مستقر لهما، وكأنها تُريد أن تتأكد من خلو الطريق من المارة تمامًا، فالشرطة سبق أن قبضوا عليها أكثر من مرة وهي تُمارس دجلها وشعوذتها بين الجهلة من الناس، فرمت ما في كيسها من قواقع وحجر وخرزات بحضنها، ثمّ سريعًا جمعته بعناية ودقة بين كفيها وقالت لك: أغمض عينيك جيدًا ولا تخف، وَضعْ يدك فوق مكونات الكيس الذي بين كفيّ، وقل: بسم الله، ففعلتَ هذه التصرفات (الشركيّة) مثلما أمرتك (قندة)، منقادًا لأوامرها دونما أي تردد وسؤال، رغم أنك كنت دائمًا تُنكر ما تقوم به (قندة) وغيرها بشدةٍ، وبدأت (قندة) تُقلب ما بين

يديها من (خليط) عدة مرات، أظنها لا تقل عن الخمس مرات، كأنها تنخله من الشوائب العالقة بأجزائه، ونفثت فيه ثلاث مرات، ورأيت شفتيها المكتـنزتين تتحركان بكلمات لم نفهم منها شيئًا، ورمته على رقعة قماش سوداء اللون، مربعة الشكل، فرشتها على الأرض بينها وبينك، فبدأت تُركز في نظرها على القطع المنثورة على الأرض، وبدا الحزن عظيمًا على محيّاها، رفعت عينيها لتنظر لوجهك عدة مرات باستغراب واندهاش، وضعت يديها على رأسها وهي تنظر إليك، وقالت بصوت مسموع: ويّ .. ويّ .. ويّ ثلاث مرات، ولكنها سرعان ما قرّرت جمع قطعها المنثورة فوق قطعة القماش ووضعها في حضنها من جديد، وبدأت تعجن بيديها مكونات الخليط جيدًا، كأنها تبحث بين مكوناته الكثيرة عن رؤية جديدة، لعلها تكون أفضل من الأولى لك، وقالت كلمات سريعة جدًّا وبصوت خافتٍ، لم نفهم منها شيئًا كذلك، فحملت خليطها بين كفيها ورمته مرة أخرى فوق قطعة القماش بعد أن نفضت ما علق فوقها من حبات رمل، وسكتت قليلًا، وصاحت بأعلى صوتها مرة أخرى: ويّ .. ويّ .. ويّ، لقد استغربنا كثيرًا من ملامح وجهها المتيبّس، الذي لا يضحك ولا يعرف أن يبتسم، دائمًا وجهها يحتفظ بهيئته الصخريّة الجافة .. كيف تستطيع هذه المرأة الغجرية الأميّة أن تتحكم في عضلات وجهها بمثل هذه الدقة؟! كيف تمكنت من جعل

عضلات وجهها قابلة للتطويع السريع، حسب ملامح صور المشاعر التي تُريد إبرازها لمن يجلس أمامها؟! فكانت تنتقل بين لوحات مشاعر الحزن والألم على صفحة وجهها بسرعة رهيبة، حتى شعرنا بأنها تأثرتْ بما قرأتْ وشاهدتْ، كانت تتصنع أمامنا مشهدًا تمثيليًّا كررته سابقًا مئات المرات، تُريد منا جميعًا أن نستوعبه وأن نحفظ أدق تفاصيله، ولكن كنا عكس ما توقعت، فبدأنا نضحك من هذا العرض المسرحي، وننتظر بشوق ولهفة سماع قراءة مستقبلك الزاهر بحيويّته والزاخر بمفاجأته عبر بوابة (قندة)، ولعل حظك يكون مثل حظ (قارئة الفنجان)، ومكتوب عليك يا ولدي أن تحب وتعشق بجنون، أيها الشاب المفتون .. ولحظات صمت لم تكن طويلةً بيننا وبين (قندة)، فقالت لك وهي تنظر إليك: أمامك مصاعبُ كثيرة، وحياة قاسية ذليلة، ومعاناة وابتلاءات حارقة .. أمامك طريق طويل صعب اجتيازه، أنت قادمٌ على هجرة بعيدة .. سوف تتعرف على فتاة جميلة، أجنبيّة وليست عربيّة، تحبها وتحبك وتكن بهواك مفتونة، عندها ضحكنا وقلنا لك: لعلها تكون إنكليزيّة شقراء من بقايا (الهبيّز) أو أمريكيّة سمراء من حُثالة (المارينز)، وكنت في وقتها خائفًا جدًّا، وكنا لا نعلم عن سبب خوفك حينها، وكأنك صدّقت رؤية هلوستها وكلامها المنمق المرتب، هل تذكر (سُمعه) تلك القصيدة التي نظمتها عن الفتاة (الأمريكيّة)

وأسميتها: (عاشقٌ لكِ أمريكا)؟ فاتهمك أذناب الشيوعيين والبعثيين بالترويج للإمبرياليّة الغربيّة والاستعمار الغربي، وحقق معك يومها الاتحاد الوطني للطلاب عدة ساعات بسببها، وقالوا لك: من تقصد بهذه القصيدة الإمبرياليّة؟

- ألم تنسَ يا (قدوري)!! لقد فضحتنا بقوة ذاكرتك الحديديّة .. أرجوك أن لا تذكرها لأحد في (سقاريا).

- بالله عليك يا (سُمعه) .. أكرمني بشيء من تلك القصيدة.

- رجاء (قدروي) لا تحرجني مع ذاكرتي المتهالكة؛ فإنها لا تسعفني الآن، فقد شاخت وهرمت وتدهورت، ولكن سأذكر لك ما يحضرني من قصيدة (أطيافُ حنين) طالما أنّ الطريق أمامنا إلى (سقاريا) طويل:

أطيافٌ ..
تسافرُ بأيامي العاريهْ ..

شوقًا لتلك الأمنية ..

هكذا كان في قلبي الحنينْ ..
حين حط في أرضنا ..

وتفتحتْ زهرةُ الضجيجِ ..

بمائها الحزينْ ..

نهضَ الصبرُ من سريرهِ ..

غسل وجهَهُ بماءِ اليقينْ ..
أطلقهُ في العراء ..

لا يهاب المستحيلْ ..
لم يرنِ الأمسُ ..

ألبسُ ثياب الرحيلْ ..
لم يرنِ حارسُ التقاليد ..

أحملُ بين يدي صرة حُبي ..
كمجنونٍ ..

واقفٌ في قارعة الطريقْ ..
يقتلني الفراقُ بنابهِ ..

يغرسُ في صدري ..

مخلبه الطويلْ!!

محاولًا ..

قتل ذلك الجنينْ ..
يمضي الهواء ..

حاملًا أنفاسَ الأملِ ..
مُشَبّعًا برائحةِ الحنينْ ..
يشقُ القدرُ صدرَ أحلامِنا ..
وتصيحُ الحياةُ:
ويَّ.. على أيامِنا ..
ويَّ .. على أحبابِنا!!
نطوفُ كأرواحِ الموتى ..
بين المدافنِ ..

لسنا عظامًا تحت الثرى ..
ولسنا طيورًا كالثُريا!!

- يا (سُمعه) .. هل تذكر ماذا قالت (قندة) يوم رمت فأل (كرم)؟

- نعم أذكر جيدًا يوم رمتْ له (فأله) عدة مرات مثلي، وفي كل مرة تضحك فيها كاشفة لنا لون أسنانها الصفراء القبيحة، وتقول له: إنك ستكون سعيدًا، وإنك سترث ثروة كبيرة جدًّا، ستحتار ماذا تفعل بها .. سوف تتزوج بأربعة نساء، اثنتين أكبر منك في بداية حياتك، ثمّ لاحقًا تتزوج باثنتين أصغر منك بكثير، وشاهدتُ (قندة) ترفع خيطًا أحمر اللون قصيرًا جدًّا من بين قواقعها وخرزاتها وتقول له: هذه إحدى

نسائك الأربعة، إنها ذات جمال باهر يسر الناظرين، وهذه من سيعيدُ لك الشباب والحيوية مرة أخرى، وقربتْ الخيط جدًّا من وجهه حتى كاد يُلامس طرف أنفه، وقالت له: انظر إليها جيدًا، فبدأنا أنا وأنت يا (قدوري) ننظر لأحد محارم (كرم) بحضوره، كان في وقتها (كرم) يُريد أن يمنعنا من النظر لزوجته التي لا نعلم كم رقمها، وكأنه يُحاول أن يأمر ذات الحسن والجمال بالتستر في حجابها عنا، ويرجو من (قندة) عدم الاسترسال كثيرًا في وصف جمالها، وحين سأل (قندة) برقةٍ وحنانٍ عن اسمها، قالت له: لا أعلم. فَرِحَ (كرم) في وقتها كثيرًا، وكنا لا نعلم ما سبب فرحه، هل فرحته بالمال والجاه الذي ينتظره أم بحظوة النساء الأربعة الموعود فيهنّ، ومن يومها بدأنا ننادي على (كرم) بهارون (البصرة).

- ما شاء الله على ذاكرتك يا (سُمعه)، تتكلم وكأنك تقرأ من صفحات مكتوبة أمامك، هذا أنت كما عهدتك أيام الشباب، يوم كنا نتسابق معك على قراءة الكتب، يوم كنت أول من يحل أسئلة الاختبارات الشهرية، وكُنت دائمًا لا تُريد أن يسبقك أحدٌ في حلّ أسئلة الاختبار، وأن لا يخرج قبلك أحد من قاعة الاختبار، وأذكركَ يا (سُمعه) يوم كنت أحد أفراد الجوالة، فكنت أنت من يُلقي كلمة الطابور

الصباحية، كلمة مكتوبة في ورقة معدة مُسبقًا لك من قبل إدارة المدرسة، في يوم الخميس من كل أسبوع، في أثناء تأدية تحية رفع العلم. وهل تذكر يا (سُمعه) ماذا قالت العرّافة (قندة) عندما رمتْ (الفأل) لي؟

- نعم أذكر جيدًا يا (قدوري)، وأذكر ملامح مشاعرك التي تدفق دمها بسرعة في وجهك بعد سماع حديثها الشيّق، وقبل أسبوع بالضبط كنتُ أتحدث مع زوجتي (أم ثائر) عن ذكريات (العرّافة) بخصوصك، عندما اتصلت عليَّ وأخبرتني عن مجيئك لتركيا، وعن رغبتك بشراء شقة.

بداية أنت رفضتَ أن تضع يدك فوق حَجرها وقواقعها، ورفضت أن تربط بين ذكر (اسم الله) وبين عملها، بل بالغت في الإنكار عليها، وكأنك تُريد طردها، ومن حسن الحظ أنّها تجاهلت تصرفاتك المرتابة وكلامك المر اللاذع المسموّم، فواصلت عملها بعد أن تنازلت عن الرد على كلماتك الافتتاحية الساخرة منها، وقالت لك بعد صمت لم يتجاوز الدقيقتين: سوف تكون طيارًا مدنيًّا في المستقبل، وسوف تتزوج من إحدى أقاربك، بفتاةٍ تحبها وتحبك، تعيش معها قصة حُب خالدة، فضحكنا أنا و(كرم) عليك كثيرًا، واستغربنا كيف عرفتْ أنّ لك علاقةً مع إحدى قريباتك!! لكنك لم تكن طيارًا ولا بحارًا كما قالت

وكذبت، ولكنك تزوجت فعلًا من صديقة أختك وقريبتك التي اسمها (جوزة) .. فكيف هذا يا (قدوري)؟!

- يا (سُمعه): (كذب المنجمون ولو صدقوا)، و(العرّافة) تقوم بتفسير ملامح الوجه بما فيه الأنف والعينان والفم، وربما تأخذ معايير أخرى في طيات وجه الشخص الجالس أمامها، وتقوم العرّافة بتحويل هذه المعايير إلى تنبؤات حول المستقبل، وليس لديها دليل من الصحة فيما تقول، ولكن بعض الناس من ذوي النفوس المريضة يلجئون لها، وهل تذكر كيف هَربنا من (العرّافة) يا سُمعه، ولم ندفع لها المبلغ المتفق عليه؟

- نعم أذكر، ركضتْ خلفنا عدة أمتار رابطة عباءتها بوسطها، تمّ سرعان ما تراجعت عن اللحاق بنا؛ خوفًا على (بقشتها) من السرقة، التي تركتها في المكان الذي كُنا نجلس فيه، عادت وهي تصرخ وتُولول، وتفتح جيبها وتنظر للسماء وتُتمتم بكلام غير مفهوم، وتلطم حظها التعيس بأن ضحكنا على عقلها.

- لكن يا (سُمعه) حدثتني زوجتي (جوزة) عن الوجه الآخر لحكاية العرّافة (قندة)، لنفس ذلك اليوم، أخبرتني عن أحداثٍ لم نسمع بها ولم نشاهدها نحن الثلاثة.

- وما هذه الأحداث يا (قدوري)؟ لقد شوقتني لمعرفة تفاصيلها .. جميل أسلوبك التسويّقي التشويقي هذا، كأنك أحد سماسرة العقار الماهرين الجيدين، يُريد أن يُغري زبونًا بشراء عقارٍ معين، ويعرف أنّ هذا الزبون صيدٌ ثمين.

- قالت لي يا (سُمعه): بينما كنا نحن الثلاثة (أنا وأحلام وأختك نادية) نجلس فوق كراسٍ خشبية مرتفعة قليلًا عن الأرض وطويلة، في (دهليز) منزلكم المسقوف كعادتنا في ظهر كل يوم، لقضاء قيلولة ذلك اليوم الساخن بين لعبٍ ولهو، وحكايات كثيرة عن أقراننا، من بنات المدارس والجيران، نجلس في نفس المكان المخصص كمجلس لوالدتك وجاراتها اللاتي يتجمّعن في بيتكم في أوقات الضُحى والعصر، بقيادة الخطابة المشهورة (أم نبيل)، التي تُدير الجلسة بذكاء وفطنة، بينما كُنا نتداول الحديث عن زينتها المبالغ فيها؛ إذ تُزين (أم نبيل) ساعديها الموشوم أحدهما في صورة قلب حب بدرزنين (معاضد) من الذهب الخالص، تتفاخر بهنّ كثيرًا أمام النساء، تستمتع (أم نبيل) كثيرًا عند سماع صوت الرنة التي تصدر من تصادمهنّ مع بعض أثناء حركة اليدين، وعادة تُبالغ في حركة يديها أثناء حديثها؛ ليسمع الجالس بقربها صوت رنين تصادم معاضدها .. سمعنا جميعًا صوت حديثكم مع

العرّافة (قندة) أثناء تفاوضكم معها على السعر، فنهضنا جميعًا من مجلسنا لنقف خلف الباب مباشرة، نسترق السمع لما يدور منذ البداية، مستمتعين بحديثها الشيّق معكم، وبالوقت نفسه عنكم، سمعنا كل ما قالته لكم العرّافة عن (فألكم) وعن قراءة مستقبلكم، وسمعنا كل ما دار بينكم وبينها من حوار ساخن، وعندما هربتم عنها وتركتوها لوحدها فتحنا لها الباب، وطلبنا منها أن تدخل للدهليز، بينما أنتم وليّتم الفرار عنها، ولم تعلموا ماذا جرى لها، فكانت تبكي بكاءً شديدًا كأنها طفلة، وتتألم بحسرة على ما فعلتم بها من خديعة وتدعو عليكم، وتندب حظها النحس في ذلك اليوم، وعندما دخلت الدهليز غدى بكاؤها نحيبًا، وفتحت جيب صدرها الذي كشفت لنا نصفه، ثمّ نفثت فيه ثلاث مرات، ورفعت يديها عاليًا جدًّا للسماء، وكأنها تُريد أن تتسلق درجاته، لتتعلق في أعمدة سقف الدهليز الخشبية المرتفعة نوعًا ما، وبدأت تدعو عليكم بالطامّة السريعة، فقلنا لها: هوني عليكِ يا خالة، فإن جاءت لهم الطامّة فستكون علينا جميعًا، فوعدناها خيرًا بالتعويض عن تصرفكم السيئ جدًّا معها، مقابل أن ترمي (الفأل) لنا؛ لمعرفة مستقبلنا هذه المرة، شريطة أن تكون قراءتها بصوت خافت جدًّا؛ خوفًا من أن تسمع صوتها والدتك النائمة في الغرفة الداخلية لمنزلكم، والمشهور عن أمك عدم التفريط في نوم القيلولة، حتى لو

كانت دقائق قليلة، فوالدتك تنظر للقيلولة كجرعة يوميّة ضروريّة، مثل حبوب الضغط والسكر بالنسبة لها، من الضروري أن تتناولها، فأهلنا كما تعلم يا (قدوري) كباقي النجديين المقيمين في (البصرة)، منذ أيام الهجرات من نجد، وهم حريصون - كل الحرص - على صفاء عقيدتهم الدينيّة من عبث الشرك الظاهر والخفي، ويُصرون على عدم قبول أي نوع من أنواع الشرك بالله، مهما صغر في مظهره، أو استهان فيه الناس، كانوا يُنكرون مثل هذه الأعمال التي تقوم بها العرّافة (قندة) وغيرها من الدجالين والمشعوذين، سواءً أكانوا رجالًا أو نساءً، من أمثال المنجمين وقارئي الكف والفنجان وضاربي الودع، بل هم ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، فكانوا يرون من الواجب على كل مسلم إنكار مثل هذه البدع والمسائل الشركيّة، ومن المفروض عدم التعامل معها وعدم تشجيعها، ويعتبرون أنّ مثل هذا العمل باب واسع يؤدي بسالكه لطريق الشرك والضلال - والعياذ بالله، فالمهاجرون النجديون، رغم كثرة اختلاطهم مع سكان أهل (البصرة) من جميع الملل والمذاهب الأخرى، في السكن والبيع والشراء والعلاقات الاجتماعيّة الأخرى، إلا أنّهم تمكنوا من المحافظة على موروثاتهم النجديّة الأصيلة؛ من عقديّة وعادات وتقاليد، فلم يتأثروا بمن حولهم من جيران وأصحاب في المجتمع الجديد، الذي هاجروا إليه منذ مطلع أيام الهجرات النجدية الأولى لجنوب العراق،

التي كانت بسبب القحط والمشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي عصفت في بلاد نجد في تلك الأيام الغابرة؛ بل هم أثروا في المجتمع الجديد الذي نزحوا إليه وسكنوا فيه؛ حيث إنهم أسسوا فيه منطقة امتداد فكري وعقدي واجتماعي لقرى نجد.

فاحترنا يا (عبد القادر) بمن تبدأ العرّافة (قندة)، كل منا خائفة أن تبدأ بها، فلجأنا للقرعة الورقيّة فيما بيننا، أحضرتْ لنا أختك (نادية) ثلاث ورقات صغيرة، واتفقنا على أن تبدأ (قندة) بأول اسم تسحبه لنا، بعد أن كتبنا أسماءنا الثلاثة في الورقات، طلبنا من (قندة) أن تسحب ورقة من الورقات الثلاث، فكنتُ أنا الأولى التي يجب أن ترمي (الفأل) لها، وقبل أن تبدأ برمي أحجارها وقواقعها الكثيرة والمتنوعة سألتني عدة أسئلة متعلقة بسيرة حياتي الخاصة، لم تتمكن (قندة) من انتزاع أية معلومة صحيحة مني، فطلبت مني أن أضع يدي فوق خليطها العجيب، وأن أقول (باسم الله)، فشاهدت بين القواقع والأحجار والخرزات خاتمًا صغيرًا جدًّا ذا فص أحمر عنابي، وقفلًا صغيرًا ومسمارًا وقطعًا حديدية صغيرة وكثيرة، ففعلتُ ما طلبت مني وأنا غير مقتنعة بطلبها، لكن فعلته من باب حُب المغامرة التي تدفعني بشراهةٍ لقبول أي طلب منها، ومن باب حُب المخاطرة والمعرفة؛ لمحاولة اكتشاف ما يجري في خبايا

عقل هذه الغجرية من معتقدات بابليّة وآشوريّة، لم يستطع أن يقضمها الزمن، ولم تتمكن أن تهضمها عصارة المدنيّة المعاصرة، فقلبتْ خليطها بسرعة عدة مرات بين راحتي كفيّها الصغيرتين الخشنتين، ونحن نسمع فرقعة صوت تصادم مكونات خليطها المتناغم مع صوت معاضدها الحديديّة الكثيرة .. وضعت خليطها بين يدي، وكان في قلبي هلع وخوف، طلبتْ مني بلهجة الآمر أن أرميه فوق قطعة القماش السوداء المفروشة على الأرض بيننا، وعقب رميه بدأت تتفرس في تفاصيل وجهي بدقة، وكأنها تبحث عن شيء مجهول لها في ملامحه، أو تجد منفذًا ليس فيه غموض لحديثها عني، فقررّتُ عدم تمكين (قندة) من قراءة أي شيء من أفكاري وأحاسيسي وتعابير وجهي، واحترتُ حينها في أمري، فأين أخبئ وجهي ولون عيني عنها؟ وهي تتجاوز بنظرها حدود البؤبؤين، فتنظر إلى عمقهما بشراهة وجرأة، تبحث عن شيء في داخلهما، وكأنها تهمسُ في نفسها وتقول: من أين أتت هذه النجديّة بلون هاتين العينين الناعستين الجميلتين؟ فجأة نهضت من مكانها مذعورة، كأنها ملدوغة من عقرب رملية، واتجهت لباب الشارع الخشبي ذي الفتحتين الكبيرتين .. أسندت كتفها على إحدى الفتحتين، ووضعت أذنها اليُسرى على صفحته؛ تستمع لما يدور من حديث خلفه، وربما كانت تؤمل نفسها كثيرًا بسماع صوتكم، لتقتص منكم حظها،

ولكن أظنها لم تسمع شيئًا في ذلك الوقت، غير عزف صفير الهواء في الزقاق، الذي كان يعوي في تلك الظهيرة، فضربت الباب بباطن كفها ثلاث ضربات متتالية، وكأنها تستنطق لوح الخشب .. قالت كلمات لم نستوعب معناها في وقتها، ولم نتذكر تلك الكلمات التي قالتها فيما بعد .. طلاسم وتعويذات وخُزعبلات، ورجعتْ إلى حيث مكانها، وتقرفصتْ في جلستها، وقالت لي بوجهٍ متأثر مما قرأتْ وشاهدتْ من حجرها المنثور: يا ابنتي، لا أعلم ماذا تفعلين في (المشفى)، هل جئتِ من أجل الولادة؟ أم أنّكِ مريضة مرضًا عضالًا صعبًا طبه وشفاؤه؟ سوف تتزوجين من أحد معارفك في (البصرة)، وتعيشان حياة عامرة، يحبك ويخاف عليك وتقتله الغيرة، يُخبئ عنكِ حقيبة دبلوماسية صغيرة، سوداء اللون ذات قفل بأرقام سرية، بداخلها أوراق ملوّنة قديمة، وأنت يا (عبد القادر) منذ أن تزوجتك لم تمتلك حقيبة بمثل هذه المواصفات، أعرف أنّ لديك حقيبة جلدية صغيرة ذات لون بني وبدون أرقام سرية، بداخلها مجموعة من صكوك العقارات، وشهادات ميلاد الأولاد وأوراق تطعيمهم، وعدد كبير من جوازات السفر القديمة المنتهية الصلاحيات، وورقة عقد زواجنا، وأوراق تراخيص المحلات، ومجموعة من سجلات تجارية قديمة لمؤسسات خاملة لا تعمل، ثمّ قالت لي: ستذهبين بعيدًا جدًّا معه، ربما في بعثة دراسيّة، أو في غربة ليس لها

نهاية، وستكونين بقربه سعيدة وأميرة، سيأتيكم أولاد وبنات، فرحمك بكر منبت للذرية.. انظري لهذه القوقعة، فنظرتُ إليها فلم أرَ شيئًا غريبًا في شكلها وملامحها، غير أن بطنها مفتوحة بشكل ملفت للنظر، وليست كالأخريات. نهضتُ بسرعةٍ من مكاني الذي كنتُ أجلس فيه، خفت من كلامها، وشعرت بعرق كثير يتصبب، بلل أطرافي وتصفد في وجهي، وكأني بدأت في وقتها أصدقها، وبدأت مشاعري تتفاعل بدفء مع رقة حديثها الساحر، وانتابني خدر وخمول مُنعش في جسمي، رغم عدم قناعتي بعملها بداية، وهكذا هنّ يُخدرن المشاعر والأعصاب بهلوستهنّ. ثمّ جاء دور ابنة خالتك (أحلام) بعدي مباشرة، ففاجأتنا العرّافة (قندة) بضحكاتها المتتالية بعد أن رمت خليطها فوق قطعة القماش السوداء؛ مما اضطر أختك (نادية) أن تطلب من قندة خفض صوتها، ولكنها بدأت تُصفق بيديها وتُدندن بأغنية المطرب فاضل عواد (لا خبر)، وفجأة انتصبت واقفةً تهز جسمها المترهل قليلًا، بطريقة تُحاكي فيه موروثها الشعبي الخاص عند (الغجر)، بحركات لم نألفها من قبل، ليس برقص شرقي وليس برقص غربي، رقص خاص في مناسبات الغجر الخاصة والعامة، والرقص عندهم مشاع جدًّا، ويُعتبر جزءًا مهمًّا من الفلكلور الشعبي الذي يتوارثونه جيلًا بعد جيل، كأنه عهدة في ذمتهم، ويتقنون أداءه وحركاته، وعلى الأجيال نقله بأمانة، واستغربنا

عندما وضعتْ قندة يدها على رأس (أحلام) وقالت لها: سوف يتزوجك (كويتي) ثري جدًّا وليس أميرًا، ستعيشين معه في قصر كبير، ويكون لديك خدم وحشم كثير، وسيارة فخمة خاصة بسائق (عبد)، حيثما تشائين يسير، وتسافرين في كل صيف لبلاد بعيدة دون تبرير، ثمّ انكبت على (أحلام) تُقبلُ ظاهر يديها عدة قُبلات، وجمعت أثر قبلاتها بباطن كفيها، فمسحت حصادهما على وجهها عدة مرات تبركًا بفألها؛ ظنًّا منها أنها صاحبة الحظ السعيد بيننا، ودعت لها بالبركة والتوفيق في حياتها، فتهلل وجه (أحلام) فرحًا بما سمعتْ، وأزاحت ستارة الخوف عن وجهها بابتسامة رقيقة، وكأنها صدّقت بمثل هذه المُعجزة الخُرافيّة، ونسيت الحقيقة بأنها تجلس أمام (عرّافة) ماكرة ماجنة كاذبة، لها سبعة وجوه، لا حول لها ولا قوة بنفسها، ومنذ تلك الساعة بدأت (أحلام) تستفز مشاعرنا العاطفية، بأنها المدعوة بصاحبة الحظ الأفضل من بيننا، وكيف الإنسان العاقل السوي تُسيطر عليه مشاعر غريبة، جُملة من الخُرافات تتحكم في تصرفاته مع الآخرين، رغم أنه ابن عقيدة وابن توحيد.

وعندما جاء دور المغرورة أختك (نادية) صاحبة الحُجة الدامغة بين أقرانها، وذات اللسان السليط، التي يهابها كل من يلتقي بها، حتى

مدرسات الثانوية كُنّ يتجنّبن استفزاز مناقشاتها وحوارها؛ لأنها تضعهنّ في مواقف محرجة أمام الطالبات .. احتقن الدم في وجهها، وتورّدت وجنتاها عن زهرتين جميلتين، وتفصد العرق في جبينها؛ حياءً وخوفًا منا في كشف سرها المكنوز أمامنا .. لقد تنبأت أختك أن نسمع أشياءً عنها ستقولها هذه الجنيّة الملعونة، بصرف النظر عن صحتها وصدقها .. أظنُ أنّ أختك ساعتها قد لعنت تلك الظهيرة الفاضحة، كيف ظهرت فيها هذه الغجرية (قندة)؟ دون مقدمات وكأنها شخصية محنطة من نفق الزمن، أتت سيرًا على أقدامها من بين صفحات أساطير حكايات الجدات، التي حفظتها لنا الذاكرة منذ أيام طفولتنا، فبدا على أختك علامات التوتر، بداية بطقطقة أصابع يديها الناعمة ذات الأظافر الطويلة بدون شعور، وطقطقاتها السريعة هذه، وفرك يديها مؤشر ودليل خارجي لنا على قوة الطقطقات الداخلية لأعصابها المتوترة والمشدودة، فنهرتها (قندة)، وطلبت منها التوقف عن طقطقة أصابعها البشعة، وبررت لها ذلك بأن صوت طقطقات الأصابع يُشتت أفكارها التي تتراكم حول شخصيتها، فأمرتها أن تغسل يديها بالماء والصابون عن شوائب احتراق صوت الطقطقات، فاستغربنا جميعًا من طلبها العجيب، ونويت أن أسألها: هل فعلًا لطقطقات الأصابع شوائب نفسية غير مرئية في حياتنا نحن البشر ولا نعلم!! ترددت أختك نادية كثيرًا في

تلبية طلب (قندة)، التفت إلينا وقالت لنا: إنه طلب سخيف جدًّا من (قندة)، ليس له مبرر عقلي ولا طبي، هو مرض نفسي يعتقد فيه بعض العامة من الناس، حتى أنّ بعض العامة يظن أن طقطقة الأصابع في أثناء (عقد المهر) يؤدي لفساده فيما بعد؛ ولذلك كانوا ينهون عن تشبيك الأصابع وطقطقتها في وقت كتابة (عقد مهر الزواج)، لكن أختك تداركت نفسها المنفعلة وتراجعت عن رأيها، وأذعنت منصاعة لتلبية طلب (قندة)، بعد أن أصرت (قندة) على ضرورة تنفيذ طلبها، فأمرتها بوضع يدها فوق أحجارها وقواقعها، وأن تقول (باسم الله)، لكن نادية وضعت يدها دون ذكر (البسملة)، فنظرت إليها (قندة) نظرة توعّد وتهديد شديدين، لم تهتم أختك لنظرتها القاسية لها، وأعادت يدها لحضنها ووضعتها فوق اليد الأخرى، وبدأت تفرك يديها الواحدة بالأخرى، وكأنها تمسحها مما علق فيهما من وحل (خليط) (قندة)، من دَرن وأوساخ الشرك بالله .. فرمت (قندة) خليطها فوق قطعة القماش، وبدأت تنظر بطرف عينيها لنادية نظرة شرٍ وكراهية، فأزاحت أختك وجهها عن مسقط نظرات (قندة) الحاقدة عليها، لكنها سرعان ما وقعت في المحذور وعبثت بأصابعها مرة أخرى بنسيان منها، فسمعنا صوت طقطقات أصابعها، فنهضت (قندة) من مكانها، وأحضرت بقشتها، فأخرجت منها كيسًا صغيرًا بداخله مسحوق خشن يشبه في

لونه وحجمه (كحل) العين، وطلبت من أختك فتح يدها، فوضعت قليلًا من المسحوق في باطنها .. نهضت أختك مذعورة رافضة مثل هذه التصرفات والخُرافات، ورفعت بقشتها، وفتحت الباب ورمتها في الشارع، وأمرت (قندة) بسرعة الخروج من البيت قبل أن تفقد أعصابها، وأسمعتها كلامًا بذيئًا جدًّا لا يليق بها ولا بنا، وما كان ينبغي أن تتفوه به أختك (نادية)، ورمت لها مئة فلس، ثمّ أغلقت الباب خلفها دون وداعٍ.

❋❋❋

(5)

فتح (عبد القادر) الكيس الصغير المركون بجانبه، واستل منه قطعة (سميت)، وبدأ يقضم فيها متلذذًا بطعمها الذي يعشقه، وشرب معها عدة رشفات سريعة من القهوة السوداء التي فقدت حرارتها تمامًا، وساد بينه وبين صديقه (إسماعيل) لحظات صمت طويلة، أخذت فيها النفس حقها من الراحة بعد هذا السرد الطويل الذي تناوبا عليه، وكأن هذا الصمت الذي ساد بينهما إعلان عن وصولهما لمحطة استراحة، وتوقف إجباري عن مواصلة الحديث، أصبحت منطقة هدنة قصيرة فرضت نفسها عليهما، شغلت كل منهما بنفسه عن الآخر، في اتفاقٍ مسبق، فلم ينبس أي منهما بكلمة واحدة؛ فإسماعيل سافر في خياله بعيدًا، يُحدثُ نفسه المهزومة والمغلوبة على أمرها، عن قوة سطوة الحياة التي تعرّض لها،

وعن مساحة حظ البشر فيها من سعادة وشقاء، كيف أن بعض البشر يتقلب في بستان النعيم فيها، بين أنهارها ويقطف من أحلى ثمارها منذ يوم ولادته، منذ أن كان لا يفقه شيئًا من أمور الحياة، فجاء للحياة معزّزًا ومكرمًا، كل شيء مرتب وجاهز له حسب طموحه ورغباته، في حين نشاهد - في الجانب الآخر على ضفة الحياة - هنالك من يشقى ويتعب منذ نعومة أظافره، ويحفر الأرض الصلدة بأنيابه للقيام بأمور حياته وبناء مستقبله بنفسه، وقد يكون لهذا الإنسان مستقبل باهر، أو يكون مستقبلًا فاشلًا، وسبب اختلاف التوفيق بين هاتين الشريحتين من البشر يعود لمسألة تدور حول (الهوية) الوطنية، وعن انتماء الإنسان العرقي، الذي تُفتش الناس عن جذور شجرته، حتى في المقابر بين قبور الموتى؛ من أجل إخراج صكوك انتماءات وطنية، فهذا (قدوري) السعودي الذي يأتي من عمق الصحراء لشراء منزل له في أجمل مدن تركيا السياحيّة، ليجعله سكنًا لإجازاته السنوية، يستخدمه مع عائلته لمدة شهر أو شهرين في العام، وذلك السعودي الآخر (كرم) سمسار الأراضي والعقارات، الذي لم يكتفِ بكثرة سمسراته في السعودية، فقدمَ لتركيا لممارسة خبراته العقارية، فأنشأ بداية شركة مقاولات عقارية مع الآنسة (مريم) التركيّة، ثمّ تزوجها فيما بعد دون علم أحد

من أقاربه في السعودية، فقام بتقديم خدماته العقارية لزبائنه وعملائه في السعودية.

أما (عبد القادر) فقد أمعن النظر كثيرًا بخياله، وهو ينظر من نافذة السيارة لروعة جمال الطبيعة التي سرقت لُب عقله، ينظرُ للمنطقة الممتدة على جانبي الطريق السريع، الذي تشقه السيارة بسرعة، واستدعى من حزمة فكره صورة طمع وجشع زميلهما الثالث (كرم)، ونشاطه الدؤوب في زيادة ثروته الكبيرة، عن طريق توسيع استثماراته الخارجية في تركيا بالذات، وإنشائه لشركة مقاولات "سعودية – تركية"؛ لبناء مجمّعات لوحدات سكنيّة، وكيف جاءت له هذه العقلية الاستثمارية؟ ومن أين له هذه الثقة والجرأة في سرعة تنفيذ مثل هذه المشاريع الكبيرة؟ والحياة - فعلًا - فُرص كالطيور المهاجرة، لا تمر فوق سماء بيتنا مرتين، ورأس مال الفرصة الاستثمارية سرعة الإقدام، والعزم على التنفيذ، بعد التوكل على الله.

بعد جولة الخلوة القصيرة هذه لكل من (إسماعيل) و(عبد القادر) داخل مغارة النفس، التفت (إسماعيل) إلى صاحبه؛ ليقطع عليه حبل أفكاره، وينتزعه من شروده عنه، ويُعيده مرة أخرى لحيّز المكان والزمان من جديد، مرحبًا به بحرارةٍ:

- بالعافية (قدوري).

- الله يعافيك يا (سُمعه)، وشكرًا لك على كرم ضيافتك العراقيّة الأصيلة العريقة.

- هيا الآن يا (قدوري)، حدثني عن بنت خالتك أختنا (أحلام)، أظنك كنت جائعًا، والآن ملأت معدتك وشبعت، فأحلام صديقة زوجتك (جوزة)، فماذا فعلت فيها الأقدار؟

- حكايتها طويلة جدًّا يا (سُمعه)، وبالوقت نفسه محزنة ومؤلمة؛ لأنّ (أحلام) أسرفت في إطلاق خيول حزنها، وعندما تسمع قصتها ستعطف عليها كثيرًا، وربما نكون قد وصلنا لمدينة (سقاريا) ولم تنتهِ قصة حكايتها.

- كلا أمامنا طريق طويل يا (قدوري)، وعادة جسر (البسفور) لا يسلم من زحمة المركبات، وزحمته لا تقل عن ازدحام جسر (الفاتح) الذي عبرناه قبل قليل، فخذ راحتك يا (قدوري) في الكلام، ورجاء ابسط ولا تختصر.

- أظنك يا (سُمعه) تذكر جيدًا زواجها من الشاب الكويتي (حمد)، الذي يعمل طيارًا في الخطوط الجوية الكويتيّة، كنا جميعًا في السنة

الأخيرة من الثانوية العامة، وبعد تخرجها من الثانوية خطبتها له خالته (خديجة) المقيمة في مدينة (البصرة) لابن أختها، بناءً على توصية في البحث عن زوجة له من أختها (عفراء) المتزوجة برجل كويتي، فوجدت الخالة (خديجة) في (أحلام) من المميّزات المقبولة المناسبة لابن أختها، من أخلاق وجمال وحُسن تدبير اشتهرت به بين فتيات الحي، فنظرن لها قريناتها وقريباتها وصديقاتها نظرة إعجاب وحسد وغيرة في آن واحدٍ، وكم تمنّيْن أن ينالهنّ مثل نصيبها السعيد، وأن تكون حياتهنّ في (الكويت)؛ لما فيها من ترف ونعمة، وقد بالغ بعضهن في التبرك بها، وتتبعن أثرها في كل صغيرة وكبيرة، وتقاسمن ثيابها الجديدة والخَلِقة عقبَ زواجها، بعد أن تنازلت عنهنّ .. تزوجت بحمد ودرست في كلية التربية بجامعة الكويت، وعاشت حياة سعيدة مع زوجها (حمد)، وكان لا يُكدر صفو سعادتها، ولا يغم حياتها سوى كثرة سفريات (حمد)؛ بسبب ظروف وظيفته، فحياته في الجو أكثر من حياته فوق الأرض .. كانت (أحلام) تملأ وقت فراغها بالمذاكرة وقراءة الكتب، وبعد أربع سنوات تخرجت من الجامعة، وعملت مدرسة لغة عربية في مدرسة ابتدائية قريبة جدًّا من سكنها، وعاشت حياتها الزوجيّة راضية مقتنعة بما رزقها الله من خير ونعمة؛ فقد نالت كل ما تتمناه من رغد العيش والحياة، وأنجبت له طفلتين جميلتين، لا تقلان عن جمالها بشيء، وفي كل

سفرة لنا للكويت تزورها زوجتي (جوزة)، فعلاقتهما مع بعض لم تنقطع أبدًا في يومٍ ما.

وفي أحد الأيام - قبل سنتين - رن هاتفها النقال برقم غريب، وترددت كثيرًا في الرد على المتصل، فعادة (أحلام) لا ترد على الأرقام الغريبة .. أقصد غير المخزنة في قائمة هاتفها النقال، وتعودت أن تستلم رسالة يخبرها فيها المتصل باسمه، فتعاود هي الاتصال، ولكن في ذلك اليوم - لسوء حظها - كسرت تلك القاعدة الذهبية التي اعتادت عليها، فردت على المتصل، ودارت هذه المحادثة بينهما:

- نعم.

- السلام.

- عليك السلام.

- أنا محبة لكِ يا (أحلام)، وفاعلة خير إن شاء الله، وقاطعة شر يُهدد حياتك وبيتك.

- من معي؟

- ليس مهمًّا الآن معرفة من أنا، اسمعي ما أقول لكِ بداية وسوف أخبرك من أكون أنا لاحقًا.

- في اختصار شديد جدًّا: زوجك (حمد) له علاقة بالمضيفة العراقيّة (هيام)، يلتقي معها بين فترة وأخرى، رأيته معها قبل يومين في مقهى (بوناشي) بمجمّع شرق، وتابعتهما حتى خروجهما من المجمّع، كانا يمشيان يدًا بيدٍ، وركبا في سيارتها.

- آلو .. آلو .. آلو .. وجع .. أسأل الله أن يأخذك معه.

هكذا انتهت المكالمة الهاتفية يا (سُمعه)، بالطريقة الكلاسيكية التي عادة ما نشاهد تفاصيل ملابساتها في جميع مسلسلاتنا التلفزيونيّة والإذاعيّة، ولكن النّار استعرت في جوف (أحلام)، وبدأت تغلي كغليان المرجل، تُريد أن تنفجر بما فيها من عمق داخلها، فسرعان ما نهض حسها الأنثوي الشرس، الراقد بأمن وسلام في الدفاع عن حصونها ومقدساتها الغالية، فاستنجدت بقوات الطوارئ الاستكشافية الخاصة؛ للتأكد من صدق علاقة هذه الخبيثة (هيام) بزوجها، وبداية وقبل كل شيء من تكون هذه العراقيّة؟ وكيف عرفت هذه الملعونة المُخبرة عن اسمها وعن وظيفتها وعن جنسيتها وعن علاقتها؟

وبعد تحريات سريعة أجرتها (أحلام)، لم تأخذ منها كثيرًا من الوقت، علمت بأن الخطوط الجوية الكويتيّة لديهم مضيفة باسم (هيام) فعلًا، ولكن أخبروها بأنّها (كويتيّة) وليست عراقيّة؛ فلذا عليها سرعة المحافظة على مملكتها الغالية بكل ما أوتيت من قوة وهمّة، رغم إهمالها لزوجها عدة سنوات، فأحلام لم تستنكر كثرة تناول زوجها (حمد) الوجبات خارج منزله؛ ليقينها بأنه يتناولها في عمله كباقي زملائه من الموظفين؛ نظرًا لساعات عمله المتأخرة، ولم تُفكر بكثرة تردده على الديوانيات، وجلوسه فيها لساعات متأخرة في الليل عندما يكون في الكويت، كل هذه المؤشرات المبكرة لم تكن كافية لتُحرك فيها شكًّا بسيطًا في تصرفاته، أو يهجم عليها وسواسٌ فيُصيبُ عقلها الغافل عن تصرفات زوجها، كل هذه الأجواء المفعمة بالشبهات حولها، كانت مؤشرًا كافيًا لمعرفة ما يدور حولها من طقوس رجوليّة، تستدعي الانتباه والتفكير بهدوء .. لقد انتظرت كثيرًا، حتى رن هاتفها؛ ليقع الفأس في الرأس، فنهضت بكل ما فيها من حس أُنثوي تُفتش كل ما حولها من أشياء؛ لعلها تجد ما يُدين تصرفات زوجها (حمد)، أو لا تجد شيئًا، فيكون كل ما سمعته عن زوجها عبارة عن كذبة مدسوسة من أجل الإيقاع بينهما، فاستغرب زوجها (حمد) من إصرار زوجته على مرافقته في أوقات خروجه للجمعيّات، وغيرها من المشاوير القريبة والبعيدة،

وأظهرت له لمسات من مفاتن جمالها المختبئ خلف زحمة الحياة بطريقة ملفتة للنظر، وباشرت في إظهار لمسات أنثوية جميلة في نفسها وفي كل شيء حولها في البيت؛ من نظافة وترتيب وعطور، وبدأت تظهر روحًا نسائية ناعمة وأنيقة على المائدة والملابس والفُرش، وكأنها تُريد أن تدس أُنوثتها الرقيقة دسًّا في أنفاس كيانه اليومي؛ لتُعيد حضور روحها من جديد في واقع حياته، تُريد أن تنبتْ ورودها السحرية في كل زاوية من زوايا حياته، فبالغتْ كثيرًا في حسن تصرفاتها معه، أظهرتْ له اهتمامًا خاصًّا لم يره منذ زمن طويل، فأعادتْ له تصرفاتها الجديدة معه ذكريات أيام شهر العسل الجميلة ومتعة بدايات زواجه بها؛ من خوف وشدة حرص عليه، فاستغرب منها زوجها (حمد) كثيرًا وكثيرًا، لكنها بالوقت نفسه قطعت عليه كل مشاوير التأويلات الحرجة، وأخرجته من دائرة الاستغراب سريعًا كي لا يقع في حيرة، فسرت له كل تصرفاتها الجديدة التي يشاهدها حديثًا بسبب (الحلم) الذي رأته في منامها لأكثر من مرة، (حلم) لا تستطيع أن تحكي له عن تفاصيله المزعجة، وبدأت (أحلام) تُضيّق على زوجها دائرة الخناق من كل جانبٍ، فكانت تشغله في أمور لا ضرورة لها، وتُحاول أن تمنعه من الذهاب لديوانيّة المنطقة، المكان المفضل لديه في الليل، وإن أصر على ذهابه تنتظره بسيارتها وتُراقبه من بعيد، ولا يهمها منه سواء علم بتلك الرقابة من قبلها أم لا؛ لأنها سبق أنّ فسرت

له كل تصرفاتها بسبب خوفها الشديد عليه، وربطته برؤيتها لذلك الحلم المزعج، وبدأت العلاقة الزوجية بينهما تتدهور شيئًا فشيئًا، ويشتد النزاع والخصام والخلاف بينهما لأتفه الأسباب؛ بسبب حضور مطاردتها اللحظية له في كل مكان وزمان، وأصبحت (أحلام) منتبهة لكل ما له علاقة بالنساء في حياته، رغم علمها الأكيد بعدم فهم زوجها (حمد) لشؤون النساء، ولا يسعفه خجله المزمن بتكوين علاقة معهنّ، وتعرف بأنه خارج لعبة المتعة والإغراء، ثمّ اتخذ اهتمامها شكلًا عدائيًّا ضد كل ما يقتنيه من ملابس وعطور وقراءة كتب ومتابعة أفلام سينمائية جديدة وسماع أغانٍ حديّثة؛ اعتقادًا منها أنّ كل هذه الأشياء الجديدة في حياته لا يمكن أن تأتي إليه من فراغ، أو تنزل عليه دفعة واحدة من السماء، وأن كل هذه الأشياء وصلته بكل تأكيد عن طريق العراقيّة (هيام)، ووصل بتفكير (أحلام) الهوس والجنون إلى أن بدأت تُسافر مع زوجها (حمد) على متن الطائرة نفسها في بعض الرحلات الطويلة؛ لتتعرف على نوعية عمله عن قرب، لكنها لم تُشاهد (هيام) على متن الطائرة، ولم تكن أسفار (حمد) في السابق تثير لديها الشكوك والتساؤلات، وفي أحد الأيام سألها بعد أن دار بينهما نقاش حادٌّ بسبب هذه المطاردات البوليسيّة:

- ماذا يجري لكِ هذه الأيام يا (أحلام)؟

- لا يُوجد دُخان بدون نار يا (حمد).

- فنظر إليها في استغرابٍ مما قالت:

- لماذا هذا الكلام؟ ولماذا هذه الأيام بالذات؟ ومنذ شهر تقريبًا نحن نختلف كثيرًا، ونتخاصم لعدة أيام؟ وبدأت حياتي كل يوم تتعرض لقوافل تفتيشكِ، فتعتقلين ما تشائين من حكاياتٍ لمعسكرِ تحقيقاتكِ .. ثيابي كلها بما فيها الداخلية لم تسلم من هجماتكِ المفاجئة، أدراجُ مكتبي وجدتها لأكثر من مرةٍ مغتصبة، ملفاتي المخزَّنة في جهازي (الحاسوب) لم تسلم من مقصلة عبث أفكاركِ وظنونكِ، لقد وجدتها قبل أسبوع فوق سطح المكتب عارية تمامًا من ملابسها، وأخيرًا الآن تطلبين مني معرفة الرقم السري لفتح جهازي الخلوي؛ لمتابعة رسائلي ومكالماتي، مقابل إعطائكِ لي الرقم السري الخاص بهاتفكِ، بالله عليكِ، إلى متى سَتَستمرين في حرق أسلاك أعصابكِ الشائكة، وبعثرة أفكاركِ الساخنة، وتطوير لحاء ظنونكِ المستعرة؟! ألا يكفيكِ رائحة الدُخان الصادرة من جسد كلماتكِ؟ إني أشمُ رائحة (عطاب) تخرج من قلبكِ المحترق، بالله عليك ألا يكفيكِ زراعة جيوش القبعات الزرقاء في كل مكان أقصدهُ أو أتحركُ فيه؟

فنظرتْ إليه بانكسارٍ وخشوعٍ والدمعُ يسقي عينيها بخضوع فقالت:

- ماذا أفعل يا (حمد)، أحبك .. أحبك .. أحبك .. فأنت رؤية (قندة) في حياتي.

- ومن تكون هذه الجنية (قندة)؟

- قصة طويلة لم أحكها لك من قبل، قصة طوى حصير سرها النسيان، وقَبَرَها الإنسان والمكان والزمان، يوم كنتُ في مدينة (البصرة)، قبل خطبتك لي بسنة واحدة، سوف أحكيها لك عندما نذهب الآن لمقهى (بوناشي) في (مجمّع شرق) لتناول قهوتي الخاصة هناك.

- ماذا؟

- نعم كما سمعت .. ألم تسمع بهذه المقهى يا (حمد)؟

- نعم سمعت .. وأعرف كل مقاهي ومطاعم (مجمّع شرق) ومقاهي المجمّعات الأخرى، ولكن أنا اليوم مرتبط بورشة عمل في مقر الشركة، لعلنا نُؤجل هذه الدعوة المجانية لوقت آخر؛ من أجل سماع حكاية صديقتك (قندة)، على أمل أن نفتح صفحة جديدة لحياتنا يا (أحلام).

فخرج (حمد) من منزله بعد أن رش فوق وجهه وثيابه شيئًا من عطره المفضل، ولبث فترة من الزمن تحت تأثير قوة الصدمة التي تلقاها من زوجته (أحلام)، رغم ذكائه في سرعة التعامل مع الحدث، ورغم كثرة خبراته في الحياة ونجاحه في تعامله مع الناس، إلا أنّ سربًا من عصافير الشكوك والظنون بدأت تُغرد وتُحلق بأجنحتها في سماء فكره، وكادت أن تخطف عقله وتطير بصوابه إلى مشهد من مشاهد فضيحته أمامها، وأول هذه الظنون المحلقة التي تستجدي جوابًا صريحًا، لماذا زوجته (أحلام) ذكرت له (مجمّع شرق) ولم تذكر غيره؟ ولماذا حددت له مقهى (بوناشي) بعينه دون غيره من المقاهي الكثيرة في المجمّع نفسه؟ التي عادة ما يجلس فيها مع حبيبته (هيام)، والأهم من هذا وذاك عند (حمد)، هو يُريد أن يعرف: هل كل ما حدث محض صدفة؟ أمّ أنّ (أحلامًا) تعلم شيئًا ولا تُريد أنّ تفصح عنه؟ هل كانت متعمدة ذكر اسم المقهى أمامه؛ لمشاهدة ردة فعله في تعبيرات وجهه؟ وهل أنّ (أحلامًا) كانت ترمي من حديثها الوصول لهدف معين؟ لكن (حمدًا) أقنع نفسه بأن لا يأخذ الجانب المظلم من أي واقعة في حينها، فقاد سيارته لمقر شركة الخطوط الجويّة الكويتيّة الواقع قرب المطار، ولا يعلم كيف وصل للموقف، ولا يذكر كيف قاد سيارته، فركنها في المكان المخصص للموظفين، ودخل من بوابة الشركة، ولم يكن يعلم بأن

زوجته (أحلام) كانت تتعقبه بسيارتها حتى شاهدته يدخل البوابة الرئيسة، فانعطفتْ بسيارتها نحو طريق الشيخ زايد قاصدة مجمّع (أفنيوز)؛ للترفيه عن نفسها بكوب من القهوة المفضلة لديها، وقطعة من الحلوى التي تعشقها، لقد كان زوجها (حمد) سببًا بجعلها ترتاد مثل هذه المناطق غير المعهودة في حياتها سابقًا، بينما هو مشغول في حياته الجديدة.

وبعد نصف ساعة من دخوله للشركة يرن هاتف زوجها (حمد) النقال بصوت أغنية غربيّة عذبة اللحن، يستقبل (حمد) المكالمة الهاتفيه بابتسامة مشرقة، أثناء حواره مع أحد زملائه من موظفي الخطوط الجويّة الكويتيّة، فسمع من كان جالسًا بجواره صوت همسه الدافئ:

هلا وغلا حبيبتي (هيّوم)، أنا قادم حالًا.

خرج (حمد) مسرعًا من بوابة الزجاج الدائرية المتحركة، ليجد حبيبته (هيام) تنتظره بسيارتها، فركب معها تاركًا سيارته في مقر الشركة كعادته، فتتجه بسيارتها دون الاستئذان منه لمجمّع شرق كعادتهما، وفي طريق الملك فهد السريع يُخبرها بضرورة تغيير المكان، ويطلب منها الذهاب لمجمّع (الأفنيوز)، فتستغرب من طلبه، وليس لديها من الأمر

شيئًا غير الإذعان لرغبته وتنفيذ طلبه، وعدها بأنه سيُخبرها عن سبب الذهاب لمجمّع (الأفنيوز).

وتشاء الأقدار أن تشاهده زوجته (أحلام) الجالسة لوحدها في أحد مقاهي المول المشهورة قرب الممر، قادمًا من بعيد باتجاهها، تمشي بقربه سيدة في منتصف الثلاثينيات من العمر، لأول مرة تراها في حياتها .. مشغول جدًّا في رفقتها، فعرفت أنّها العراقيّة (هيام)، يسيران جنبًا إلى جنب بشغف وحنان، يدًا بيدٍ، فعرفت أنّ البشر لا يعلمون متى تضع الأقدارُ بطريقهم أشخاصًا من الصعب نسيانهم، فنهضتْ مسرعة من مقعدها، وقلبها بدأ يقرع طبول الذعر والحرب في آن واحدٍ، ونظرها متجه لتلك الأصابع المتشابكة فيما بينهما، خرجت من المقهى، وقفت أمامهما وجهًا لوجه في الممر الرئيس للمجمّع، تاركة حقيبتها بما فيها متأرجحة على طرف مقعدها حيثُ كانت تجلس، واعترضت طريقهما بيديها الممتدتان لجنبها، كأنهما جناحي طائر في الهواء، تأملت (أحلام) زوجها (حمد) بعين حائرة وبحرقة قلب، وقرصة ألم بان في ارتعاش صوتها وتقلص عضلات وجهها، فرأت ارتعاشة سريعة تعبر وجهه، ثمّ

وجهت الكلام لحمد بصوت عالٍ جدًّا، سَمِعَهُ كل من كان في المقاهي المحيطة بالمنطقة:

- هل هذه عشيقتك (هيام العراقيّة) يا (حمد)؟

لبث زوجها (حمد) صامتًا كالأخرس، لا يُجيب عن سؤالها، ولا يعلم ماذا سيقول لها .. عجز عن لمّ شتات أفكاره المتناثرة؛ لشدة هول قوة المفاجأة، وكأن عقله يرفض تصديق ما تراه عيناه من واقع سيئ ماثل أمامه، أو ربّما كان (حمد) بينه وبين نفسه يُدبر لها عذرًا سريعًا يُقنعها به، لكن عقله توقف عن العمل لحظتها تمامًا، وبدا ساهمًا ينظر إليها بحسرة من أثر الصدمة، واستغرب كثيرًا كيف يفرُ الإنسان من قدرٍ يخشاه، ثمّ يجد نفسه وقد وقع فريسةً سهلةً له، وما أوسع هذا العالم عندما يُفكر الإنسان بالهروب ممن يخافُ منه، وما أضيقه عليه عندما تقع له مفاجآت الأقدار، وكلما اتسعت رحاب الأرض ضاقت حين وقوع المكتوب عليه، كم أصبح ضيّقًا هذا العالم الواسع في نظر (حمد) في تلك الساعة!

ما زالت زوجته (أحلام) تنتظر إجابته وهي تعد عليه اللحظات والثواني، متلهفة لسماع ما يقوله من تبرير يشفع له، رغم وجود الدليل

أمامها على إدانته بالخيانة، ترتجفُ خائفة؛ فقد يكون في كلماته كل الشفاء والعذر، وقد يكون في جوابه الشقاء الذي ينتظرها .. لبثت كقطعة جماد لا تتحرك أبدًا، ناشبة أنظارها فيهما، ووجه زوجها (حمد) هلعًا وهو يراها تقف أمامه بكل جدية وصرامة، كوجه قائد عسكري منتصر توًّا في ميدان معركة حاسمة، يبحث لنفسه عن مساحة لترتيب أوراقه، وتنظيم ما اختلط وتقاتل من أفكار في رأسه، ثمّ جاء صوته يتهدج من أعماقه السحيقة، كأنه قادمٌ من رحلة طويلة أنهكت قواه، يرتجف كطفل مُذنب يخشى شدة العقاب، ويبحث عن مخرج فيه تبرير لذنبه:

- يا (أحلام)، تعالي نجلس في المقهى بدلًا من وقوفنا هنا أمام الناس، أو تعالي نذهب للبيت؛ لنتفاهم في هذا الموضوع.

- نتفاهم على ماذا يا (حمد)؟! هل تركت شيئًا للتفاهم؟! كيف أسكت عليك وأنا أشاهدك تحتوي هذه (العراقيّة)؟

حاول (حمد) أن يمسك يد زوجته (أحلام) لتهدئتها من ثورتها، وسحبها من المكان الذي بدأ يتجمهر فيه بعض المتفرجين عليهم، وجر الحديث معها لموضوع آخر، لكن أحلامًا سحبت يدها بسرعة من يده،

وبقوة وكأنها تُريد الفرار من قبضته، بعد أن سمعت في داخلها صرخة قوية تعوي عليها بضرورة شدة الانتقام، وتقول لها بصوتٍ عالٍ: خُذي بثأرك وحقك منهما يا (أحلام)، فقالت له دون تردد:

- لا تُلوث يديّ بعد أن مسكت يد (العراقيّة)!!

وحمدًا لله أن أحلامًا قد وصفت (هيام) بالعراقيّة وليس بغيرها من الصفات السوقيّة السيئة، التي تليق في مثل هذا المقام المنحط حسب وجهة نظرها، عندها فقد (حمد) صبره وتوترت أعصابه، وظن بأن زوجته (أحلام) قد تجاوزت حدودها، وتطاولت عليهما، فتداخلت الصرخات فيما بينهما، وامتزجت الأصوات حتى لم يعد الواقف يسمع الفرق بينها، فقال (حمد) بصوت مرتفع جدًّا، هز فيه قبة ممر المُتجمهرين فيه:

- لا .. ليست بعراقيّة، هي مثلي ومثل غيري من الكويتيين الذين يُولدون في خارج الكويت، ما ذنب الكويتيّة عندما تولد في (البصرة)؟ ها أنتِ أبصرتِ النور في (البصرة) عن أبٍ وأمٍ من نجد، فهل يُقال عنكِ إنكِ عراقيّة؟ وهل يُقال عن كل من يولد في أمريكا إنه أمريكي؟ وهل يُقال عن أبناء موظفي السفارات والقنصليات الذين يولدون في تلك البلاد إنهم أبناء تلك الدول التي عمل فيها آباؤهم؟! لماذا هذا التحجيم

لأبنائنا المولودين في مصر والعراق وسوريا وغيرها من البلاد العربية؟ وهل من يولد في إيران يُقال عنه إنّه إيراني؟!

- وهل هذا الأمر هو كل ما همّك يا (حمد) في المسألة؟ أم أن هذا دفاعًا عن عشيقتك (العراقيّة)؟!

وجهت له زوجته (أحلام) هذا الاتهام المباشر وهي تبحث عن وسيلة للمحافظة على استمرار الحديث لفضح (حمد) أمام المتجمهرين في المول؛ من أجل كشفهما والتشهير بهما، وكسب تعاطف المتفرجين، بينما راح زوجها (حمد) يبحث له عن وسيلة سريعة لإنهاء هذا النقاش الساخن بينهما، وأن لا يمنحها فرصة كافية لمواصلة الحديث في تطاولها عليهما، فتقوم بنشر فضائح صفحات دفتر يوميّاته معها.

- نعم، هذا أمر يهمني بكوني كويتي، وأرغب أن نحترم الإنسان الذي يعيش فوق أرض وطني، سواء أكان عراقيًّا أو مصريًّا أو كويتيًّا.

ما شاء الله، منذ متى عرفت الوطن والمواطنة والتربية الوطنيّة؟ وعرفتَ حقوق المُقيم على أرض وطنك وبلدك يا (حمد) يا ابن الوطن؟! هل تذكر جيدًا، كنت أول من هرب يوم غزو العراق للكويت، يوم شاهدت دخول دباباتهم وسياراتهم العسكريّة وأسلحتهم الثقيلة تتحرك في شوارعنا؟ هل دافعت عن وطنك أيها البطل؟ طبعًا لا، بل سارعت في

الفِرار مع الفارين عن طريق منفذ (رأس الخفجي)، قبل أن يتم إغلاق حدوده، وسكنتَ في فندق (القصيّبي) مؤقتًا، ثم انتقلت لمملكة (البحرين)، لتعيش في فندق خمس نجوم، وتتفكه كل صباح بقراءة أخبار الاحتلال العراقي الغاشم لوطنك (الكويت) مع فنجان القهوة، وتستمع مشجعًا لأصوات رجال المقاومة الكويتيّة عن بُعد، في بهو الفندق الذي يعج بأمثالك.

- نعم حب الوطن، ولستِ أنتِ من يعرفني بحب وطني الكويت، عرفت حُب هذا الوطن منذ أن عرفت زوجتي (هيام).

- ماذا .. ماذا قلت يا (حمد)!!

- نعم .. إنها زوجتي (هيام الكويتيّة).

فبدأت (أحلام) تصرخ بجنون وترفع صوتها بشدةٍ، كأنها تستنجد بمن حولها في المجمّع لتسمعهم الحديث.

- ماذا .. ماذا تقول!! هل جننت يا (حمد)؟! بالتأكيد هذا غير صحيح، بل هذا مستحيل!!

- لا .. بل هذا صحيح، ولقد عقلتُ وتعقلتُ .. ولقد وجدت حياتي بقربها ومعها.

فتدخلتْ (هيام) بكل ما أوتيت من قوة وعزيمة وصبر، حاولتْ سحب (حمد) من المواجهة مع زوجته الأولى (أحلام)، التي لأول مرة تراها في حياتها، تجمهر كثير من الناس حولهم، وأحاطوا بهم عن قرب من كل جانب بحلقة مزدحمة؛ لسماع ما يدور بينهم من مناوشات واتهامات، ومعرفة تفاصيل ما يدور من نقاش حاد بينهم؛ لنشر ما يناسبهم من إشاعات عن هذه الحادثة، فبعض منهم ظن أنه ربما تسجيل مشهد لأحد التمثيليات الكويتيّة القادمة، التي ستعرض قريبًا بأسماء لامعة جديدة، والتلفاز الكويتي عودهم في كل عام على تبني وجوه شابة جديدة وتقديمها للمشاهد، وبعضهم ظن أنّ حمدًا اعتدى عليها، وتُلقنه الآن درسًا في الأدب لن ينساه في حياته، وآخرون توقعوا أنّه خلافٌ عائلي يقومون بتصفيته في مجمّع (الأفينوز)، وسرعان ما بدأت كاميرات الهواتف الذكية تلتقط كل ما يدور بالصوت والصورة من مشاهد وأحداث دراميّة، ويتسابقون على بثها مباشرة في برامج التواصل الاجتماعي الكثيرة، تحت أسماء اخترعوها لهم، أسماء كثيرة لا حصر لها، منها (جنون الغيرة)، (هيام العراقيّة)، (أحلام والأحلام المُحطمة)، (حبٌ في الأفنيوز) ... إلخ.

خلعتْ (أحلام) فجأة حذاءها الأيمن وهجمت به على (هيام)؛ لضربها على وجهها به، بدا من حولها يستهجنون قلة أدبها وسوء تصرفها

هذا، بأصواتٍ مرتفعة كردة فعل منهم على هذا التصرف المشين الذي لا يليق بامرأة، وعندما وجدت (أحلام) أنّ الحذاء لا يمنحها اللذة الكافية التي تبتغيها، لجأت إلى يديها ورجليها صفعًا وركلًا، فما كان من زوجها (حمد) إلا أن وقف بينهما، لينال من الضربات ما يكفيه من الاثنتين معًا، فتدخلت بعض المحجبات الجريئات المحبات للخير، فسحبت (هيام)؛ لمحاولة فك الاشتباك بينهما، ناولتها بعض مناديل الورق؛ لمحاولة استعادة هدوئها، وأبعدت (أحلام) المنهارة نفسيًّا عن المكان، وأجلستها على أحد كراسي المقهى القريبة، وفي خلال دقائق قليلة تجمع رجال الأمن في مكان الحادث، فقاموا بواجبهم في الاتصال على رجال الشرطة فورًا، بدأت (أحلام) - على حياء - تُلملم بقايا نفسها المنهارة، وكل ما فيها يرتجف ويئن ويجأر بصوتٍ خافتٍ مكتومٍ، والنارُ مستعرة في جوفها، تحرق قلبها بلهيب الكراهية، تُحاول أن تشد من عضد تماسكها الداخلي من جديد .. وقفت مرتجفة كسعفة في يوم عاصف، تبحث عن حقيبتها اليدويّة؛ من أجل إجراء مكالمة هاتفية، فلم تجدها في مكانها، فحضر رجال الشرطة ليأخذوا الثلاثة بسيارة النجدة لمركز الشرطة .. نظرت (أحلام) إلى الجميع والحيرة تبسطُ هيمنتها على وجهها، وبدأت تتخبط في مشيتها .. لم تعد تشاهد من الأشياء حولها غير الضباب، الذي يُحيط بها من كل جانب، فيتحول تدريجيًّا لعتمة سوداء، كليلٍ مظلمٍ،

تُحيط بها نجوم باهتة الإضاءة من كل جانب، ترتخي عضلات جسمها، فلا تستطيع الوقوف على رجليها، فتخرُّ حينها ساقطة فاقدة الوعي والإحساس بمن حولها من المتجمهرين، منهارة القوى عند باب سيارة النجدة، وبين حين وآخر يتحول شعورها شيئًا فشيئًا إلى إفاقة مضطربة، غير مستقرة بين الحضور والغياب، تسمع فيها أصوات القهقهات الصاخبة من حولها، من أثر شدة الصدمة التي تعرضت لها، لم تعد تعرف كيف تقطع هذا الذهول الذي أصابها، ولا تعرف كيف تعود لنفسها من جديد، بعد أن اجتاحتها حالة من النوبات الهستيرية، من صراخٍ وتهورٍ، ليجدها زوجها (حمد) فيما بعد في المستشفى في حالة يُرثى لها، وعيٌ متهالك لا يستقر على حال من الصحة، يتنازل كل من (حمد) و(هيام) عن قضية الاعتداء عليهما، بعد أن حققت معهما الشرطة في المركز طويلًا حول ملابسات الواقعة، قضت (أحلام) عدة أيام في المستشفى العام بعد أن شخّص الأطباء حالتها المرضية بحالة (اكتئاب) واضطرابات نفسية ما بعد الصدمة، حالة من الحالات الهستيرية تنتابها بين حين وآخر؛ بسبب قوة مفاجأة الصدمة العاطفية التي تعرضت لها، بدأت تتفتق لها بصورة ذكريات مؤلمة في مركز اللاشعور، تظهر للمشاهد لها على شكل أعراض جسدية واضحة، من كسل عام، وخمول في الجسم، وإعراض عن كل شيء، وكأنها تُريد أن تعيش لوحدها في وادٍ آخر، فلا

تتكلم مع أحد أيًّا كان، ولا تنظر لأحدٍ حاضر عندها، ولا تأكل ولا تشرب، ولا تُريد أن تتناول الدواء.

لم ينقطع زوجها (حمد) وأهلها عن زيارتها اليوميّة، وتستمر حياتها على هذا المنوال المرهق لعدة أسابيع، مكتئبة جدًّا، لا تتجاوب مع أحدٍ من الناس، وفي داخل أعماقها شكٌّ، غير قادرة على تصديق ما حصل لها من مصيبة، ثمّ أصبحت شيئًا فشيئًا خارجة عن إرادة السيطرة على نفسها، تغزوها كوابيس متكررة من ذوات الأمزجة العنيفة المفزعة، تتناوب عليها كل ليلة، فأصبحت أمنيتها الوحيدة في داخل نفسها الموت سريعًا من هذا الخوف المحيط بها .. بدأت تتدهور صحتها العامة يومًا بعد يوم، وفقدت من وزنها الكثير، فأصبحت عظامًا مكسوةً بجلد، وبعد مرور عدة شهور على هذه الحالة (الهستيرية) يجدها زوجها (حمد) في مصحة الأمراض النفسيّة، لا تتكلم مع أحدٍ، وتُقاتل من يُريد أن يتحدث معها، وأصبحت طفلة صغيرة تبحث عن عروستها المفقودة؛ لتعيش باقي حياتها واضعة حذاءها تحت إبطها، وتحملُ كيسًا بيدها، بداخله بعض من ثيابها، تسير بين غُرف المصحة وممراتها، تسأل من في طريقها دون وعي، وتبحث عن عروستها المفقودة.

❋❋❋

(6)

التفت (عبد القادر) لصديقه (إسماعيل) الذي كان يصغي جيدًا لحديثه المؤلم، فخاطبه:

- هكذا كان مصير حياة بنت خالتي (أحلام) يا (سُمعه)، حياةٌ قاسية ومؤلمة بالوقت نفسه، رغم البشرى السعيدة المفرحة التي زفتها لها الغجرية (قندة)، في أيام شبابها.

- ليتك لم تخبرني عن هذه المأساة يا (قدوري)، تألمت كثيرًا لما حدث لأختنا (أحلام) ولوضعها الحالي، وتذكرتُ ذلك الوجه الجميل في أيام شبابها، كان يشعُ فرحة وسعادة وحضورًا، أذكرها جيدًا يوم هرعت لمعالجة بعض البثور التي ظهرت في وجهها بالكريمات، وهل فكروا في علاج حالتها المرضية في الخارج؟

- لا .. لم أسمع عن فكرة علاجها خارجيًّا.

- يا (قدوري)، ها نحن نقترب جدًّا من المدينة الغالية (سقاريا).

- (كلٌّ مُيسّرٌ لما خُلق له) يا (سُمعه)، والإنسان معرض للابتلاء في أي وقت، وعلينا أن نتهيأ ونستعد لمحنة الابتلاء بزاد الصبر والإيمان جملةً وتفصيلًا في القضاء والقدر، (والصبرُ عند الصدمة الأولى)، كما قال الرسول ﷺ، ولكن هل تعرف بأنّ زوجها (حمد) لم يكن إنسانًا طبيعيًّا أبدًا؛ كان من المفروض عليه إخبار زوجته (أحلام) بزواجه من (هيام)، المفروض أن لا يُفاجئها بمثل هذه الطريقة الوحشيّة الهمجيّة، أرجو أن لا يكون الزواج بالثانية عمليّة إرهاب بالنسبة للزوجة الأولى.

- مع الأسف يا (قدوري) بعض السعوديين يتزوجون هنا في تركيا، دون إخبار زوجاتهم وأهلهم، فتكتشف الزوجات فيما بعد بخبر زواجه من الثانية والثالثة، فتقع المشاكل والصراعات بين الزوجين، بل ربما تتجاوز الاثنين لتصل للأبناء ولأفراد العائلتين الصديقتين أو القريبتين، وتقع الطلاقات عبر سلسلة من المشاكل، لا يفظ نزاعها إلّا قاعات المحاكم، وربما يضيع بعض الأبناء بين رعاية الاثنين، وخذ مثلًا صاحبنا (كرم) تزوج من شريكته التركيّة (مريم) دون علم أحد من أهله في السعوديّة، وحتى أنت القريب منه لم تعلم بخبر زواجه من

الثانية، أليس كذلك؟ وليس بعيدًا عليك يا (قدوري) أن تفعل مثله قريبًا، لو أنّك وجدت ما يُناسبك من فتيات تركيا الجميلات، من ذوات العيون الملوّنة، فيتعلق قلبك بحبها، أخشى أن تصرعك الغواية وتسقط في أحضان الحب.

- يا (سُمعه)، من يُريد أن يجلب لحياته الهمّ والغمّ والمشاكل والمسؤوليات؟!

- أنتم يا أهل الخليج تبحثون عن المشاكل بأنفسكم، والسعوديون بالذات يعشقون نظام (التعدّد)، ويرونه ميزة ومفخرة ورجولة، بل بعضهم يعده من أعمال السنّة النبويّة المُطهرة، من الواجب القيام بها، تشترون وجع الروّس بفلوس، وبيننا الأيام قادمة إن شاء الله يا (قدوري)، سوف نرى صمودك وقوة تحملك للمغريات الجمالية، سوف نختبر شدة صبرك على رؤية الجمال وعظيم وفائك لزوجتك أختنا (جوزة).

- يا (سُمعه)، لقد ذكّرتني بقصتين محزنتين من واقع حياتنا الاجتماعيّة، عشتُ ألم سماعهما؛ الأولى: قصة عن جارنا عبد الحميد (أبو عبد الله) الذي نُطلق عليه (حميد)، الله يذكره بالسعد والخير، والثانية عن ابن خالتي (أبي فتحي).

- ما قصتهما يا (قدوري)؟ شوقتني لسماعهما.

- جارنا عبد الحميّد (أبو عبد الله) تجاوز الخامسة والسبعين من العمر، يعيش مع زوجته (رُقيّة) في (فيلا) مكونة من دورين، فيها خمس غُرف نوم، بعد أن زوّج أولاده وبناته، وسكنوا بعيدًا عنه، في نهاية الأسبوع تمتلئ الغُرف الخمس بأحفاده، يقبرُ زوجته أم عبد الله (رُقيّة) في (مقبرة العود) بعد أن توفاها الله، بعد انتهاء طقوس الدفن والعزاء الذي حضره لفيف من الأهل والأقارب، يقف (عبد الحميد) عند قبر زوجته (رقيّة)، محاولًا أن يستعيد تصالحه مع الحياة مرة أخرى، فيتوسد قبرها مُخاطبًا من في داخله بكلمات وداع أخيرة: إلى اللقاء يا أم (عبد الله)، فموعدنا في جنات الخُلد إن شاء الله، تُوفيت (رُقيّة) بعد رحلة طويلة لها مع المرض وألمه الشديد، دام عدة سنوات، تمنى من هو قريب منها من معارفها ومن أهلها سرعة موتها؛ بسبب صراعها المرير مع الألم، وبعد عدة شهورٍ من وفاة زوجته (رُقية) يبحث (عبد الحميد) بجدٍّ عن من يُنادمه باقي أيام حياته، عن من يُناجي في ظلام ليله الطويل.

ذكرت لي زوجتي (الجوزة) - بحكم قربها من نسائهم - أن أخته الكبرى (شمّه) رشحت له ابنة خالته (الجوهرة)، الأرملة ذات الخمسين ربيعًا، فيتردد كثيرًا بقبول عرض أخته (شمّه) له، ويختلق لها أعذارًا

واهية برفضها؛ لأنه يعرف (الجوهرة) جيدًا، ويذكر أشباهها غير المقبولة عنده منذ أيام طفولتها، ويكفيه عذرًا برفضها شبهها الكبير لأخيها (رعد)، ولكن أخته (شمّه) تلحُ عليه وتعطف على وضعه:

- من يقوم على خدمتك يا أخي (عبد الحميد)؟ ابنتك (سارة) مرتبطة بمسؤوليات زوجها وبيتها، لو قامت بمثل هذه التكاليف يومًا أو يومين فإنّها لن تقوم به في اليوم الثالث.

أبا (عبد الله)، لا يمكنك أن تستمر على هذه الحالة، فاعتمادك على الخادمة الإندنوسيّة (بونيا) في كل شيء مسألة فيها وجهة نظر شرعيّة.

وتمضي الأيام والشهور وأخته (شمّه) تجتهد في البحث لأخيها عن من يقوم بواجبات الزوجة الصالحة، وأي رغبة أو مصلحة يا (سُمعه) تنتظر امرأة تقبل مثل هذه الزيجة المتعبة؟ أظن يا (سُمعه) أنّه يبحثُ عن ممرضة طوارئ له أكثر من زوجة مثالية تبحثُ عن مستقبل مشرق لها.

وفي أحد الأيام كانت (شمّه) جالسةً مع أخيها (عبد الحميد) تُحدثه عن بعض أوصاف نساء القرية، وتُعدد له شيئًا من محاسنهن، وإذ به يفاجئها بقوله: لقد وجدتُ المرأة التي ستقوم بواجباتها الزوجيّة، فاستهل وجه (شمّه) فرحًا واستبشرت خيرًا:

- أين وجدتها أبا عبد الله؟ ومن هي؟ ومن عائلتها؟ عجل يا أخي.

- على رسلك يا (شمّه)، إنها قريبة جدًّا منكِ.

- كيف؟ ومن هي؟

- إنها (بونيا).

فصرخت دون وعي من أعماقها:

- (بونيا)!! لا غيرها؟ الخادمة والشغالة؟ هل ترضى أن تتزوج خادمة أبا عبد الله؟! هل فعلًا ستفعلها؟ والله هذا الذي بيني وبينك يا أخي (عبد الحميد)، فماذا سأقول لزوجي (أبي محمد)؟ ماذا أقول للجيران عن زواجك بخادمة (إندنوسيّة)؟ ماذا ستقول بناتك لأزواجهنّ عن زواجك بخادمة؟ ماذا .. وماذا؟

فنهضت وخرجت من البيت دون سلام ودون عودة.

- وما قصة ابن خالتك (أبي فتحي) يا (قدوري)؟

- لا تقل ألمًا وحزنًا عن القصة الأولى، ودفع الله عنها جريمة قتل لو لم تتدارك الموقف (أم سعد)، وتحتويه سريعًا، وتفصح لابنها عن ماهية الأمر وملابساته.

- شوقتني لسماع القصة يا (قدوري)، عجل بسردها قبل أن نصل، فنحن على مقربة من مدينة (سقاريا).

- هذه القصة من حزمة مشاكل الزيجات غير الصريحة، وغير المعلنة رسميًّا على الملأ في مجتمعنا، أو ما يسمونه في هذه الأيام بعرف زواج (المسيار) المنتشر مؤخرًا بين كبار السن، ولهذا كان من سنن الزواج في الشريعة الإسلاميّة (الوليمة)، وهي من السُنن المؤكدة، أي الإعلان والإشهار عن مشروع زواجه أمام الناس.

- يا (قدوري)، سم بالرحمن وهات القصة بالله عليك.

- أجل، اسمع يا (سُمعه)، القصة منذ بدايتها: حين شعرَ الموظفون أنّ أبا فتحي هجرَ الفطورَ المعتاد معهم في صباح كلِ يومٍ، الذي عادة ما يكون (فول قلابة) و(شكشوكة) مع خبز (التميس) الأفغاني الحار، عند حضوره يكتبُ ملاحظاتهِ عن حضور وغياب الموظفين في سجل الدوام الرسمي، ينصرفُ فيما بعد لمدة ساعتين، وقد يطول به الوقت لثلاث ساعات في بعض الأحيان، يُكلف أحد المُوظفين القُدامى بتسيير العمل نيابة عنه، لا أحد يعلم إلى أين يذهب، ومن يستطيع سؤال المدير في البلاد العربية!! فأغلب الموظفين توقعوا بأن لديه أعمالًا خاصة يشرف عليها كغيره، وإن سأل أحد المدراء عنه في العمل قال

موظفوه للمدير: بأنه ذهب لأحد الإدارات في الوزارة، يقفُ بسيارته قرب أحد المنازل الشعبيّة في منطقة (طويلعة)، فيُفرغُ ما في صندوقها من حمولةٍ عند عتبة الباب المفتوحِ جزء منه، ويتحرك بسيارته ليركنها في طرف الشارع، تحت ظل أغصان شجرة (البمبرة) الكبيرة، المتجاوزة بعض أغصانها الكثيفة سور المنزل رغم ارتفاعه الشاهق، فيدخل المنزل بعد أن يتأكدَ من خلو الشارع من المارة، فتستقبلهُ (أم سعد) بأجملِ زينتها من ملابسٍ ومساحيق وأصباغ ملونة؛ لإخفاء بعض ما أفسده الدهر في وجهها، يقضي فترة الصباح معها قبل عودة صغارها من المدرسة.

ابنها (سعد) يستوحشُ الغربة في أمريكا ويملُ الوحدة القاتلة ويشتاق لبلده وأصحابه ووالدته، مثله مثل بعض الشباب الذين لا يتحمّلون الغربة، ولا يُطيقون قسوتها، ويُضيعون فرصة العمر، فيشعر (سعد) بضرورة عودته لمباشرة المسؤولية التي خلّفها له والده بعد وفاته قبل عام، مسؤوليته عن أمه وإخوته الصغار، فيُقرّر قطع بعثته الرسميّة، التي حصل عليها بواسطة كبيرة، والعودة لأرض الوطن دون إخبارِ والدته؛ كي لا تغضب من تصرفه، سيفاجئها بالخبر ويجعلها أمام الأمر الواقع، وسيشرح لها ظروفه.

تهبطُ طائرته في أرض مطار الملك خالد الدولي بمدينة الرياض في الثامنة صباحًا، فتقوده سيارة أجرة لمنزلهم، يُحدث نفسه بأن والدته في مثل هذا الوقت حتمًا ستكون نائمة، ولديه مفتاحه الخاص لباب منزلهم الخارجي الذي يحتفظ به .. يفتح الباب دون إحداث ضجة؛ كي لا يزعج والدته في نومها، يدخل الصالة ليُفاجأ برجل غريب يجلس أمام أمه، كاشفة الوجه له، فتندلع المعركة بين الاثنين، فتصرخ أمه به بأعلى صوتها، وكل عصب فيها يرعد ويرتجف من شدة الخوف:

- إنه زوجي يا سعد .. إنه زوجي يا سعد على سُنة الله ورسوله، كنتُ أنتظر الفرصة كي أخبرك.

قطع (إسماعيل) حديث (عبد القادر) فجأة ليُعلن عن وصولهما لقلب مدينة (سقاريا)، فتوقف بسيارته قرب عمارة زجاجية مكونة من أربعة أدوار .. حاول (إسماعيل) أن يجد موقفًا شاغرًا قريبًا منها لرصف سيارته، فرفع يده اليسرى عن مقود السيّارة، ومدّ إصبعه مشيرًا للعمارة الزجاجية مُحدثًا صديقه (عبد القادر):

- انظر لهذا المكان الذي اخترته لك، كأنه قلبٌ ينبض بالحيوية والنشاط، تدب فيه حركة الناس بالليل والنّهار، لا يهدأ أبدًا، مكان لا يعرف النوم، أفضل بكثير من الفنادق .. انظر لهذه العمارة الزجاجية،

يملكها عراقي من أصول كُردية اسمه (دلدار)، ويعني باللغة الكُردية (العاشق)، جاء مهاجرًا لتركيا، فارًّا من شمال العراق؛ بسبب خلافاته السياسية الكثيرة مع حزب العمال الكردستاني منذ زمن بعيد، الذي يُناصبه الكيد والعداء بأثر رجعي، هرب (دلدار) من أعداء له يعرفهم جيدًا في العراق منذ أيام دراسته الجامعيّة في بغداد، فاشترى العمارة وأجرى عليها بعض التحسينات الإنشائية في تصميمها، ليتم تحويلها من شقق للإيجار السنوي إلى غُرف تُؤجر بالليلة الواحدة، وأسماها (نُزل الرافدين) للمسافرين، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، شرع بفكرة تأجير الغُرف بنظام السرير والسريرين والثلاثة أسرة في داخل الغرفة الواحدة، بعض الغُرف فيها سريران، والبعض الآخر فيها ثلاثة أسرة، لقد حجزتُ لك غرفة بسعر مناسب جدًّا، فيها دورة مياه خاصة (الله يعزك). (دلدار) لا يخرج إلا ببدلة كاملة مع ربطة عنق دائمًا، يحرص كثيرًا على مظهره الخارجي، رغم تجاوزه الستين عامًا، يحلق ذقنه يوميًّا، ولا يُطيق رؤية منابت شنبه الأبيض، ولا تجد في شعر رأسه الكثيف شعرة بيضاء، رائحة عطره الخاص يسبقه بعدة أمتار، يحضر قبله للمكان، فتشعر بمجيئه قبل رؤيته، يُزين أصبع خنصره الأيمن خاتم ذهب كبير، وفي يده اليسرى معضد ذهب، نُقش عليه اسمه بحروف لاتينية، هو يعتقد أن المظهر الخارجي مهم جدًّا، وجزء من شخصية الرجل، وعليه أن

لا يُفرّط فيه مهما كانت الظروف، فالمظهر الخارجي يمنح الرجل هيبة ووقارًا واحترامًا، وُيعتبر (دلدار) أحد رموز مؤسسي رابطة (الغربة والغرباء)، وكبير الممولين فيها؛ فكرًا ودعمًا ومشاركةً، يحب الشعر والأدب والثقافة بصورة عامة، وبالوقت نفسه هو أديب متفرس وشاعر فارس مغوار، وكثرة انغماسه في عالم السياسة سحق في فكره الاهتمام الأدبي، فحول معظم أعمال نصوصه الأدبية إلى صراعات سياسية ومناوشات فكرية؛ من أجل خدمة معتقده، فلا يزال فكر (حزب الأحرار) الذي ورثه من أبيه ينبض في قلبه وعقله.

- شكرًا لك (سُمعه)، أتعبتك معي، ولو أنّي أرغب الإقامة في فندق، أفضل بكثير من غُرف هذا النُزل، ولكن قل لي ما هذه الرابطة التي ذكرتها؟

- يا (قدوري)، هذه العمارة أفضل من الفنادق المشهورة وأرخص منها بكثير، انظر لكل المطاعم والمقاهي حولك، وانظر لهذا السوق الكبير الذي يقع تحت (النُزل) مباشرة، وهذا المكان يُعتبر مركز المدينة، وقريب جدًّا من كل الأسواق الشعبية، و(النُزل) يقع مقابل الجامع الكبير في المدينة، تسمع فيه أذان الصلوات الخمس، ومكتبنا العقاري قريب

جدًّا من (النُزل)، مجرد عدة أمتار تخطوها وتكون في مكتبنا، وقريبًا أحدثك عن رابطة (الغربة والغرباء).

- يا (سُمعه)، بصراحة لم أتعوّد السكن بغرفة في (نُزل) أو في عمارة أسرة مفروشة.

- سوف تتعود المكان وتعشقه إن شاء الله، وسوف يُوفر لك هذا المكان الكثير، وأنت تستغرب من كلمة (نُزل) يا (قدوري).

- ربما أغيّر (النُزل) غدًا، إن وجدتُ في النت فندقًا مناسبًا قريبًا جدًّا من هنا.

- يا (قدوري)، أنت سوف تُقيم هنا شهرًا كاملًا وليست أيامًا قليلة، سيكون الحساب مكلفًا عليك، جرب هذه الغرفة أسبوعًا واحدًا على الأقل، فإن لم يُعجبك المكان سنبحث لك عن فندق آخر في المدينة، والآن انظر لهذا المطعم المزدحم بالزبائن، اسمه (الشورجة)، صاحبه اسمه السيد (صباح قيّس)، عراقي من أهل منطقة الأعظميّة في مدينة بغداد، أسماه صاحبه (مطعم الشورجة)؛ تيمّنًا بسوق (الشورجة) المشهور جدًّا في مدينة (بغداد)، الذي يعود تاريخ إنشائه إلى العصر العباسي المتأخر، وينتشي السيد (صباح) فرحًا عندما يسمع أي حديث عن

منطقة (الشورجة)، صاحبه الذي يُكنونه (أبا قيّس) هو من يدير المطعم ومعه بعض العمال العراقيين والأتراك، الذين يُجيدون طهي (الكباب)، يُقدم لزبائنه في الصباح الفطور، من الساعة السادسة حتى الساعة العاشرة صباحًا، المكون من (قشطة) طازجة تصل إليه صباح كل يوم من القُرى القريبة من (سقاريا)، وعسل طبيعي وبيض بنوعيه المقلي والمسلوق، حسب طلب الزبون، كذلك يقدم مع الفطور الخبز العراقي الحار المُعد في فرن المطعم، ويُقدم الشاي العراقي مع الحليب، وفي الظهر والليل يُقدم كافة أنواع (المشويّات) وعلى رأس القائمة (الكباب العراقي) اللذيذ، كما يُقدم طبق الرز مع كافة أنواع (المرقات) الموسميّة.

- شكرًا لك يا (سُمعه) على هذه المعلومات السياحية.

- العفو، انتظر هنا (قدوري)، سوف أرسل عامل (النُزل)؛ ليساعدك في حمل الحقائب.

تبع (عبد القادر) عامل (النُزل)، ارتقى عدة درجات ليدخل صالة استقبال (النُزل) الواسعة نوعًا ما، تحتضن مكتب الاستقبال أمام البوابة، و(طقمين) من الكنب الجلدي ذي اللون الأسود، وعدد من الطاولات الصغيرة المتناثرة بين الكنب، وتلفاز بلازما كبير موضوع داخل مكتبة

زجاجيّة ضخمة، زُيّنت ببعض المزهريات الجميلة، وبعض الدروع والشهادات الممنوحة للنُزل، شاهد (عبد القادر) صاحبه (سُمعه) جالسًا على (الكنبة) يتحدث إلى رجل أنيق المظهر والملبس، ممتلئ الجسم أصلع الرأس، ترك بين أصابعه سيجارًا لم يُوقده بعد، ظنه (عبد القادر) أنه صاحب (النُزل) أو مديره، وحينما شعر (إسماعيل) بأنّ صاحبه (عبد القادر) واقف في الصالة ينظر إليه، قطع حديثه غير المسموع بسرعة مع الرجل، الذي انشغل بإيقاد سيجاره، ثمّ انصرف إلى تدخينه بتعطش. طلب (إسماعيل) من (عبد القادر) تقديم جواز سفره للآنسة (فريال)؛ من أجل تدوين المعلومات الضرورية من أجل ضيافته، كعادة أهل الفنادق و(الموتيلات) و(الغُرف المفروشة)، طلبت الآنسة (فريال) من (عبد القادر) التوقيع على الأوراق الخاصة بالنُزل، بعد أن قامت بتعبئتها، فجأة نهض (إسماعيل) من مكانه بسرعة دون مقدمات لوقوفه، وكأنه تذكر شيئًا مهمًّا كان منسيًّا بالنسبة له، ذهب لمكتب الآنسة (فريال) وقال لها بودٍّ:

- هذا أخي وحبيبي وضيفي من السعوديّة، قدمي له كل ما يحتاجه من خدمة ومساعدة.

- إن شاء الله أستاذ (إسماعيل)، مرحبًا بضيفك الكريم.

ودع (إسماعيل) صديقه (عبد القادر) على أمل اللقاء به في صباح الغد؛ من أجل الذهاب سويًّا بسيارته إلى مدينة (يلوا)؛ لرؤية الشقق المعروضة للبيع، ثمّ غادر (النُزل).

حمل العامل حقائب (عبد القادر) بعد أن استلم مفتاح الغُرفة من الآنسة (فريال)، وسار أمامه، وقال له دون أن يلتفت له:

- عذرًا منك أستاذ .. ليس لدينا خدمة مصعد للدور الأول، سوف تستخدم الدرج في صعودك لغرفتك وعند نزولك.

- لحظة لو سمحت، دعني أذهب للاستقبال لتغيير الغرفة، أريدها في دور مرتفع عن الأرض، بعيدًا عن صوت الشارع، وبعيدًا عن رائحة المطاعم.

وقف عند مكتب الآنسة (فريال)، منتظرًا أن تنتهي من خدمة أحد الزبائن الجُدد. وفور انتهائها اعتذر منها بأدبٍ على الإزعاج، وطلب منها تغيير الغرفة له، لكنها أخبرته بأنّ صديقه (إسماعيل) هو من اختار هذه الغرفة لمميّزاتها الكثيرة، وطلبت منه بداية أن يُلقي نظرة عليها ويُقرّر فيما بعد .. حاول إقناعها بضرورة تغييرها؛ لأنّه لا يُريد الإزعاج بسبب قربها للشارع العام وضوضائه، لكنها أصرّت عليه برؤية اختيار

صاحبه، وكأنها تُريد أن تقوده للرأي السليم حسب معرفتها في غُرف النُزل، وليترك حقائبه في الأسفل ويشاهد الغرفة بنفسه، فما كان منه إلّا أن انصاع لرقة ورجاء طلبها، وسار خلف العامل متعقبًا أثره في الدرجات، ففتحها له، فوجدها مطلة على الساحة، وهي الغرفة الوحيدة في النُزل التي فيها شرفة واسعة تسع كُرسيين، وبينهما طاولة مربعة الشكل، وتطلُ الشرفة على الشارع العام، أمام الجامع الكبير بمنارته الشامخة، وصوت مؤذنه الشجي كان يصدح معلنًا عن دخول وقت صلاة الظهر، وسط ضجة أصوات المؤذنين، وفي الأسفل سلسلة من الدكاكين، وسوق شعبي يضج بحشود المتبضعين حول العربات، وبسطات خشبية منثورة هنا وهناك .. يسمع (عبد القادر) من الشرفة أصوات الباعة، وثمّة يشاهد حركة سيارات حمل كبيرة، يتراكض لها مجموعة من الحمالين؛ من أجل إفراغ ما فيها من حمولة .. في الغرفة سرير كبير وجلسة استراحة، وركن خدمة واسع، يحتوي على (مايكروويف) وثلاجة صغيرة وطباخ كهربائي، صُمّمت وكأنها (سويت) في فندق خمس نجوم، فعرف روعة اختيار صاحبه (سُمعه)، وعرف سر إصرار الآنسة (فريال) على رؤيتها، فطلب من العامل إحضار حقائبه، وسار خلفه ليشكر الآنسة (فريال) ويعتذر منها:

- آنسة (فريال)، لا أعرف كيف أشكرك على هذا الذوق.

- إنه ذوق صاحبك (إسماعيل)، لقد أصرّ أن نحجز لك هذه الغرفة دون غيرها من الغُرف، ولعلمك الخاص كان يشغلها ليلة البارحة نزيل آخر أخرجناه لأجلك.

- شكرًا لكم يا آنسة (فريال) ..

- عفوًا، لو أردت أي خدمة من المطعم أو المقهى الذي في الأسفل اتصل بنا ونطلب لك ما تُريد، تجد قائمة المطعم فوق الطاولة في غرفتك، ولو أردت سيارة أجرة بسائق أو بدون ما عليك سوى إخبارنا.

- هل السائق يتكلم العربية؟

- نعم، إنه ابن خالتي، من مدينة الحدباء.

- أين تقع مدينة الحدباء؟

- تقع شمال بغداد، وهي جنّة الله في أرضه، تركتها بعد دراسة الثانوية وجئنا إلى هنا.

- هل هي بعيدة عن الموصل؟

- لا .. بل هي ذاتها مدينة الموصل ومدينة نينوى.

- لماذا سُميت بالحدباء يا آنسة (فريال)؟

- لقد جاءت التسمية بسبب احدداب نهر (دجلة) واعوجاج مجراه عند مروره بشمال مدينة (الموصل).

- هل درستِ هنا يا آنسة (فريال)؟

- نعم درستُ الجامعة هنا، وتخرجت من كلية الحقوق، والآن أحضّر رسالة الماجستير في القانون التجاري، لم يبقَ لي غير مناقشة الرسالة بعد أسبوعين إن شاء الله، ويشرفني حضور أمثالك.

- أظن دراسة القانون صعبة ومعقدة، درسته في فصلين وأتعبني، وكان أصعب مادة درستها.

- لا .. ليس أصعب من مادة المحاسبة النكدة التي درستها، سوف تستمتع أستاذ (عبد القادر) في (سقاريا) كثيرًا .. فيها أسواق كثيرة، وأسعارها رخيصة مقارنة بمدينة إسطنبول، لكن عليك أن (تنتبه) يا أستاذ (عبد القادر).

- من ماذا يا آنسة (فريال)؟

شعرت (فريال) في وقتها كأنها قد أخطأت بهذه الرسالة التحذيريّة؛ لقد استعجلت بتحذيره قبل معرفة ميوله الفكرية، لماذا أظهرت حقدها وكراهيتها لهذه الأحزاب التي تمقتها؟ فحاولت سريعًا أن تتدارك هذا الخطأ الذي وقعت فيه، وقالت:

- من كل شيء هنا في تركيا.

- شكرًا لك، وأنا حذر إن شاء الله، هل تُقيمّين هنا في (سقاريا)؟

- لا .. أسكن مع أهلي في (المعشوقية)، ليست بعيدة عن (سقاريا)، السكنُ فيها أرخص من هنا.

- كان الله في عونكم يا أهل العراق وسوريا .. آسف آنسة (فريال) لقد أخذت من وقتك، شكرًا لك.

- في آمان الله.

هكذا ودع (عبد القادر) الآنسة (فريال) قبل أن يرتقي درجات السُلم لغرفته، يشم في طريقه بقايا عطرها الناعم، الذي لم يزل عالقًا بحواسه كلها، يأبى أن يُفارقه، محاولًا (عبد القادر) في طريقه للغرفة الوصول لتفاصيل طيف وجهها؛ ليستعيد صورة جمالها الطبيعي الذي داعب حس خياله، ما أجمل لون عينيها العسليتين!! وشعرها الناعم

الطويل، المصبوغ بماء الذهب، المقصوف من الخلف، ذات الوجه النظيف من عبث المساحيق الفرنسية الملوّنة، وتذكر رشاقة جسمها الأنيق بتقاطيعه، وحديثها اللبق الشيق معه، ونصيحتها له بأن ينتبه إلى نفسه، حين رق صوتها وامتزج بضحكة ناعمة خفيفة تخلع القلب، وما كاد يصل لغرفته إلا وتفاصيل أجزاء صورتها تناسلت بعضها مع بعض، لتطبع له صورة واضحة عنها في مخيلته.

فور وصول (عبد القادر) لغرفته غيّر ثيابه، واضطجع على السرير الوثير ذي الأغطية ذات اللون الأزرق، رفع الهاتف الذي قُرب رأسه ليتحدث مع استعلامات (النُزل)، ويطلب منهم طبق كباب مع قارورة كولا دايت:

- نعم، نُزل الرافدين، مساء الخير، كيف أخدمك؟

- مرحبًا، آنسة (فريال)!! ما شاء الله عليك، سنترال واستعلامات ومديرة استقبال، هل لديك أعمال أخرى غير هذه التي ذكرتها؟

- مرحبًا أستاذ (عبد القادر)، نعم لدي أعمال أخرى، هل ترغب في مساعدتنا؟

قالتها وهي تضحك، فضحك معها مجاراة لضحكها.

- ليس لدي مانع بتقديم مساعدة، بما أستطيع، وأعتبره تشريفًا لي بالعمل معك.

- أي خدمة أستاذ (عبد القادر) نقوم بها؟

- لو سمحتي، أنا بحاجة لطبق كباب وزجاجة كولا.

- إن شاء الله يصل لغرفتك بعد نصف ساعة.

- شكرًا لكِ آنسة (فريال).

***

(7)

تناول (عبد القادر) وجبة غذائه الكاملة الدسم بداخل غرفته في (النُزل)، وتقلب كثيرًا في فراشه، محاولًا أن ينال قسطًا كافيًا من الراحة بعد عناء الرحلة، لكن هاجس التفكير هجم عليه دون مقدمات، ولم يترك له فرصة لإغلاق جفن، بدأت عدادات المراجعات اليوميّة تعمل مُبكرًا بنشاط وهمة، وكأن وجبة الغذاء حركت الدماء في أوعيتها الدموية .. حاصرته حزمة من الأسئلة التي لم يجد لها جوابًا شافيًا، وقفز من بينها سؤال مُتورم في نفسه لم يجد له منفذًا للتبريّر: لماذا (فريال) تُحذره؟ ما هو الشيء الخطر الذي تنوي تحذيره منه؟ لماذا هذا التحذير؟ هل هو خاص بصديقه (سُمعه)؟ وما الذي بينها وبينه؟ ما مكانته هو عند الآنسة (فريال) كي تقوم بتحذيره ممن حوله؟ هل أنّ المسألة مجرد

أحقاد وضغناء تحملها في نفسها، وتُريد أن تجعل منه ساحة تصفية حسابات لها؟

كل هذه التساؤلات الساخنة التي تُحاصره من كل جانب، ومثلها الكثير التي بدأت تُفقس بفعل عدم وضوح الرؤية من تحذيرها له، كانت كفيلة بطرد مشروع النوم من عينيه .. كانت مؤشرًا شرسًا لتداعي النفوس عندها؛ لذا لم يتمكن من أن يغمضهما لحظة واحدة، بل تعاظم التفكير في أجوبة هذه الأسئلة المحيّرة، فجعلته يحمل كتابه ويتوجه لصالة (النُزل) الرئيسة في الأسفل، يبحث عن ركن مناسب لتسلية وقته بقراءة (الرواية)، فوجد أريكة شاغرة مقابل الآنسة (فريال)، وُضعت كأنها بُرج مراقبة، يستطيع من يجلس في منصتها مراقبة حركة الآنسة (فريال) وتحركاتها بدقة، وبدا للمشاهد كأنه أحد رجال المباحث التقليديين، الذين يحملون جرائدهم ويجلسون في المقاهي الشعبية والأماكن العامة، يتظاهرون بتصفح أوراقها عبثًا؛ من أجل مراقبة شخص ما أو طريق ما، غير أنه وجد تفكيره يهرب إلى الآنسة (فريال) وتحذيرها له، مهما حاول التركيز في القراءة.

فكلما شاهد الآنسة (فريال) بمفردها دون وجود أحد زبائن (النُزل) حولها، حدث نفسه بأن يهجم على وحدتها، ويكسر شوكة السؤال المؤلم

الذي يجرحه، ويسألها بكل جرأة: عن سبب تحذيرها له؟ لكنه سرعان ما يتدارك نفسه ويتوقف عن هذا التهور، ثمّ يُفكر فيه مرة أخرى ويتردد كثيرًا، ويُرجئ مثل هذه المواجهة الصريحة لوقت آخر، ولعل الفرصة تسوق نفسها بنفسها إلى ميدان المكاشفة .. كان يخشى تعرية اهتمامه لها، شغل تفكيره: هل الآنسة (فريال) تشاركه مشاعر الاهتمام في حضوره مثل اهتمامه هو في حضورها الآن؟ ليته يعلم هذا، فالمشاعر الوجدانية تجاه الآخرين في بعض الأحيان تكون خادعة، فتختلط على الإنسان الطبيعي في معرفتها، فتكون الرؤية غير واضحة بالنسبة له، فلا يستطيع أن يُميّز بين أخلاق الاهتمامات الشخصية وأخلاق الاهتمامات التجارية التسويقيّة، فليس بين الاثنين حد فاصل، فمساحة التداخل بينهما شاسعة وكبيرة جدًّا، لا تُوجد بين حدودهما خطوط إرشادية، حمراء أو صفراء أو ملونة، أو تكون الحدود بينهما محاطة بسلسلة من الخلايا الحساسة المنبهة، تقرأ لك بسرعة مشاعر المقابل لك من الناس، وتتعرف عبر هذه الحساسات المنبهة على صدق مشاعر المقابل وحُسن نواياه، أو عن كذبه وغشه وسوء نيته؛ لذا على (عبد القادر) أن يكون حذرًا أكثر من اللازم، وواعيًا لكل حاضرٍ وغائبٍ، وأن لا يكون طرفًا في تصفيات ما لا يعلم عن خطورتها، أو يكون مادة خصبة سهلة الاستثمار من قبل الآخرين.

شغل تفكير (عبد القادر) سر تجاهل الآنسة (فريال) لحضوره؟ بالذات عندما تلتقي نظراتها بنظراته؟ كلما تصادمت النظرات حاولت بعزم أن تنوء بعيدًا عن مسقط محطات بصره البعيدة، هل الآنسة (فريال) تتعمد مثل هذه السياسة النسائية الخبيثة؟ من أجل جعل المبادرة تبدأ منه أولًا؛ كي تمتلك خط الرجعة لأي طارئ قد يحدث، هكذا هُنّ النساء، تَعوّدن على أن يكون مشروع انطلاق بداية التعارف من الرجال، وأن يكون الرجل هو الضحية في الغالب، وهل مبادرات التعارف بين الجنسين ذكُورِيّة؟ رغم أنّ (المبادرة) من اسمها تدل على أنها أُنثويّة النشأة والتكوين، و(المبادرة) عمومًا في سجل الميلاد اللغوي صُنّفت في قائمة العنصر النسائي.

سرعان ما شد (عبد القادر) من قوة عزم جرأته المتراخية، ورباطة جأشه وعزمه، وأغلق كل المنافذ التي تدفع تيارات حيائه وخجله، ووضع الكتاب جانبًا، فنهض من مكانه دون أن يترك للتردد فرصة للإطاحة بعزيمته، فتوجه لمكتب استقبال (النُزل)، رغم قناعته بأنّ لكل مشروع مراحل، وعليه أن لا يحرق هذه المراحل في مشروعه؛ كي يصل إلى هدفه بسرعة، بينما كانت الآنسة (فريال) تنظر لما بين يديها .. لم تشعر باقترابه منها، أو ربما كانت تتظاهر بأنها لا تشعر بدنوه منها، رغم أن حواسها

كلها كانت ترصد حركاته وسكناته وهي في مكانها، كانت تُقلبُ مجموعة من الأوراق، كأنها تُريد أن تُعيد ترتيب تسلسلها من جديد حسب تواريخها أو حسب أرقامها، كما هو ظاهر من حركة عملها، فاقتحم عليها انشغالها بجرأة، ولفت نظرها بوقوفه بقربها:

- عفوًا، آنسة (فريال)، كيف أتواصل مع ابن خالتك (عادل)؟

فلم ترد عليه، لكنها سحبت حقيبتها الزرقاء ذات الماركة العالمية، وأخرجت منها كرتًا صغيرًا وقالت له:

- خُذ، هذا كرته الخاص، مدون فيه رقم هاتفه، تواصل معه وكُن حذرًا منه؛ فهو رجل ثرثار، يُجيد صناعة الكلام، لا تصدق كل ما يقول لك .. اتركه يتحدث أو يُثرثر، وكُن مستمعًا جيدًا، كصاحب قصة (الحلاق الثرثار) التي مرت عليك في القراءة، هل تذكرها يا أستاذ (عبد القادر) في أيام الدراسة الابتدائيّة؟

- آنسة (فريال)، كيف عرفتِ أني درستُ في العراق؟

- لا بل أعرف يا أستاذ (عبد القادر) بأنّك درست في محافظة (البصرة) جنوب (العراق)، حاول أن تتفق مع ابن خالتي (عادل) بداية،

وليكن اتفاقك حسب المشوار ذهابًا وعودة، أو اتفق معه على أجرة اليوم الواحد.

- آنسة (فريال) هل (سُمعه) هو من أخبرك عن دراستي في (البصرة)؟

- نعم، ومن غيره ينقل لي مثل هذه الأخبار؟

- شكرًا لكِ آنسة (فريال)، لكن لماذا هذا التحذير المُغلّظ وللمرة الثانية يحدث؟

- أريدك أن تهتم بنفسك، وأن لا تندفع خلف ما تسمع من مزامير إبليس، من هنا ومن هناك.

- عن ماذا أسمع من هنا ومن هناك مثلًا؟ ومن هؤلاء الأباليس؟

- لا أعلم بمن ستلتقي منهم؛ لذا لا يمكن لي تحديد هوية المعلومة والخبر لتعريفه لك وتعريته، لكن أراك حسن النية، ولا أريدك أن تندفع خلف ثرثرات حزبية نتنة.

- شكرًا لكِ، هل (إسماعيل) من ضمن قائمة التحذيرات؟

- لا يمكن تحديد هوية شخص بعينه، ولا يمكن البوح لك هنا بشيء من هذا القبيل، رُبما في مكان آخر، أضع أمامك بعض التفاصيل؛ لتُساعدك على فهم هذه التحذيرات.

- مثلًا، أين تُريدين أن نلتقي؟ هل يُوجد هنا مكان عام، كحديقة نلتقي فيها تكون بعيدًا عن محاذيرك؟

- اليوم لديَّ التزام؛ فوالدتي لديها موعد مع دكتور القلب، وسوف أرافقها، ولنقل غدًا مساءً بعد نهاية العمل، ولتكن الساعة السادسة، والمكان في سوق الخضار، عند بائع الليمون.

- وكيف أعرف بائع الليمون هذا، ناهيكِ عن معرفة هذا السوق؟

- سوق الخضار ليس بعيدًا من هنا، يأخذ من وقتك خمس دقائق سيرًا على الأقدام، وفي قلب السوق تجد أحد المحلات لا يبيع غير (الليمون) .. محل مشهور ومتخصص في بيع كافة أنواع (الليمون) الأصفر والأخضر، والصغير والكبير، سوف تجدني أقف قرب أحد أركانه الأربعة، فمحله يقع في قلب السوق على أربعة ممرات.

- حسنًا، هذا المساء سأذهب لسوق الخضار وأتعرّف على هذا المكان، وأكتشف بائع (الليمون)، الذي شغل عقلي كثيرًا بليمونه، محل لا يبيع غير (الليمون)!!

- بل أزيدك من العلم شيئًا يا أستاذ (عبد القادر) في غرابة هذا السوق الكبير، ستجد محلًا آخر لا يبيع غير (الثوم) بكافة أحجامه

وأنواعه، ومحلًّا ثالثًا غيرهما لا يبيع غير (البصل) بكافة ألوانه وأحجامه وأنواعه، ومحلًّا رابعًا لا يبيع غير (الطماطم)، فهذه (سقاريا) وهذا سر تميّزها عن غيرها، فمحلات أسواقها تتمتع بالتخصص في بضائعها.

❋❋❋

(8)

في اليوم التالي وجد (إسماعيل) صديقه (عبد القادر) ينتظره واقفًا عند باب (النُزل)، بملابس زاهية وجذابة ورائحة عطر تسبق حضوره بعدة أمتار، كما هو متفق معه سابقًا على الذهاب إلى مدينة (يلوا)؛ لرؤية الشقق المعروضة للبيع فيها، وعند صعوده لسيارته رحب به، وسأله عن أجواء (النُزل) وعن السكن فيه، فما كان رد (عبد القادر) غير: سوف أخبرك بكل شيء لاحقًا إن شاء الله، فالتفت (إسماعيل) له، وهو ينظر إليه بعد أن رفع نظارته الشمسية عن عينيه:

- يا (قدوري)، ما أخبار أختك (نادية)؟

- قصدك أم (هيثم)؟

- عفوًا، لم أكن أعلم بأن لديها ابنًا اسمه (هيثم).

- درستْ (أم هيثم) في كلية الطب، بجامعة الملك سعود بالرياض، وتخصصت في طب الأسرة، وبعد تخرجها بعام تزوجت من ابن عمي (منصور) من أهل منطقة (القصيم)، من مدينة (عنيزة) بالتحديد، بدأت عملها في مدينة الملك فهد الطبية، منذ بداية إنشائها، ولا تزال على رأس العمل فيها، رزقها الله منه بولدٍ وبنتين، كلهم يدرسون في كلية الطب حاليًا بالرياض، كانا في توافق تام، كأنهما كائنان متطابقان في كل شيء، أو كأنهما آلتان تعملان بالبرمجة نفسها، منذ بداية زواجهما عرفتهما يحبان بالمقدار والكثافة نفسيهما أصنافًا واحدة من الأكل والشرب والأفلام والكتب، بل متماثلان لحد كبير في كثير من الرغبات والشهوات، قد تصل إلى أدق التفاصيل من التفاهم الغريب جدًّا، كل ذلك نوع من أنواع الانسجام المناخي الكامل بينهما، لكن منصورًا قبل سنتين تهور وتزوج بأخرى، جاء بها من بدو سوريا، فطلبت (أم هيثم) منه الانفصال، فلم يتردد بطلاقها قبل أن تعدل عن رأيها، والآن تعيش مع ولدها وبنتيها في حي (المروج) بالرياض في سكنها الخاص .. تقدم لزواجها عدة رجال، فرفضت مشروع فكرة الزواج، مقتنعة بأن الرجال ليس لهم أمان، ولا يمكن أن تثق أم (هيثم) في أحد منهم، وعندهم

الزواج يَخلقُ كما يَخلق الثوب الملبوس من كثرة الاستعمال، فيجب تجديده كل حين، وتحويل الثوب القديم لاستعمالات أخرى، كثوب بيت أو ثوب نوم، وعندهم الحب يمرض بعد عدة سنوات من الزواج، ثم يموت تدريجيًّا عضوًا بعد عضو، دون شعور من الزوجين؛ بسبب الإهمال والتقاعس عن المبادرة لإنعاشه، فيُدفن بلا مبالاة في مقبرة العلاقات الاجتماعية والواجبات العائلية والتكاليف المنزلية، مهما حاولت أن تشد عضده المسؤولية المشتركة من قبل الاثنين من أجل رعاية الأبناء وتربيتهم.

- أنا أتفق مع أختك (أم هيثم) فيما ذهبت إليه يا (قدوري)، بأنكم يا معشر الرجال، يا أبناء سيدنا آدم عليه السلام ليس لكم أمان، ومن الصعب منحكم الثقة كاملة .. أنتم مثلكم مثل المتهورين في قيادة السيارات.

- عرفتُ رأيك في الرجال يا (سُمعه) منذ يوم أمس، فلا داعي لتكراره عليَّ اليوم.

- أليست أختك (أم هيثم) كانت مخطوبة لابن خالتك (حامد)؟

- نعم، لكن والدي رفض أن تُهاجر معه لكندا.

- هل كان خائفًا عليها ولا يستطيع فراقها أم كان خائفًا منه؟

- لا أعلم يا (سُمعه)، وليس فيه سبب يستدعي خوفه عليها منه، ومن الصعب تحديد مشاعر الوالدين تجاه أبنائهم، و(حامد) - كما تعلم- بدأ حياته العمليّة في الكويت مع شركة (الساير) للسيارات، وبعد كارثة غزو العراق للكويت الأليمة تمكن من قراءة المستقبل بصورة صحيحة، فقرّر الهجرة لكندا؛ لبناء مستقبله هناك، بعد أن جمع ما يكفيه من المال لأجل الحصول على فيزا الإقامة الاستثمارية، فدرس (حامد) في كندا، وحصل على كل من الماجستير والدكتوراه في محاسبة التكاليف، ثمّ نال الجنسيّة الكندية .. (حامد) حتى وقتنا الحاضر لم يتزوج، رغم بلوغه الخمسين عامًا، لم يفكر بالارتباط العاطفي على الرغم من العلاقات الكثيرة التي أقامها مع كثير من النساء، وتعلق كثير منهنّ به حد الجنون، رفض الزواج بكل ما يعنيه من استقرار عاطفي وحياة أسرية؛ ليبقى حرًّا طليقًا .. كان يقضي جُل وقته في القراءة والبحث العلمي، يعمل الآن مستشارًا ماليًّا في شركة أمريكية مقرها في الرياض، لها عقد طويل الأجل مع أحد القطاعات العسكرية، في مجال الاستشارات العسكريّة، له عدة محاولات مع أختي (أم هيثم) من أجل

الزواج بها، لكنها مصممةٌ على رفض مشروع الزواج تمامًا، سواء أكان به أو بغيره من الرجال.

- ما السبب يا (قدوري)؟ رغم أن (حامدًا) كان خطيبها سابقًا، وكان الرجل الأول المرشح لزواجها.

- إنها تراه غير مناسبٍ لها الآن، فعقليته أصبحت غربيّة، وتفكيره مادي جشع، فلا يُناسبها، ومن الصعب جدًّا التجانس والتعايش مع تركيبته الحالية، ناهيك عن قناعة أختي (أم هيثم) التامة بأنها أخذت فرصتها كاملة من الحياة الزوجيّة، وزوجها الأول (منصور) قد قتل في قلبها الثقة بالعلاقة الزوجيّة، ونزع من روحها كل تفكير في مشروع زواج آخر قادم، فلقد كفرتْ بالحياة الزوجيّة، بعد أن خدعها زوجها (منصور) وأتى بثانية عليها.

- يا (قدوري)، سمعتُ عنك من (كرم)، كُنتَ في أواخر القرن الماضي (ملتزمًا)، أي كنت محسوبًا على قائمة المتديّنين و(المطاوعة) .. ثوبٌ قصير ولحية طويلة، وكنت تحمل كتابك وتُتابع الدروس العلميّة الشرعيّة والمحاضرات الإسلاميّة والندوات الدينيّة، ومن جامع لجامع، ومن قاعة محاضرات لقاعة أخرى.

- نعم، هذا فضل من الله سبحانه وتعالى، بأن هداني إلى هذا الطريق النافع في الدنيا والآخرة، ولا أعلم لماذا بعض المسلمين - هداهم الله - يُصرون على تحجيم قيمة الإسلام ودور تعاليمه الربانيّة، ويقومون بتصنيف المسلمين لفئات، بناءً على مظاهرهم الخارجية، وحسب رغباتهم، وأصناف ما أنزل الله فيها من حكم ولا سلطان، يقولون مثلًا: هذا متديّن وهذا غير متديّن، وهذا مطوع وذاك غير مطوع، وهذا ملتزم وذلك غير ملتزم، ونحن نعلم جيدًا منذ بزوغ الرسالة المحمدية لم يعرف المسلمون مثل هذه التقسيمات الفئوية، فالأصل في حياة كل مسلم أن يكون ملتزمًا بالإسلام وتعاليم الدين، مطبقًا لما جاء في الشريعة الإسلامية من الكتاب والسنّة النبويّة المطهرة، والثوب القصير واللحية الطويلة لهما أدلتهما في الشريعة الإسلاميّة النصيّة والفعليّة، وهما من مظاهر حياة المسلم السوي على وجه العموم، وليس هما صفات لفئة من المسلمين دون غيرهم، والحمد لله بأني لا زلتُ أبحث عن الدروس العلميّة الشرعيّة، وعن المحاضرات الإسلاميّة النافعة؛ من أجل حضورها والتفقه في الدين، والآن أنا أدرس (ماجستير) في جامعة الإمام منتسبًا، رغم أني أعيش في خريف العمر، وتُعتبر هذه الرسالة آخر قُطاف لي في الحياة، وستكون باسم: (الموافقات بين الأئمة الأربعة في

المبيعات)، وليتك يا (سُمعه) تدلني على محاضرات أو ندوات إسلامية هنا في (سقاريا) أو في تركيا عمومًا لنحضرها معك ونستفيد.

- أجل، حدثني عن قصة انتقالك لمدينة الرسول ﷺ، والسكن فيها لعدة سنوات؟

- أنت سمعت عن كل شيء في حياتي يا (سُمعه)، أظنك كنت تُطارد أخباري لحظة بلحظة، وتُتابع تقلبات أحوال ظروفي أولًا بأول.

- لا .. ليس لهذه الدرجة يا (قدوري)، لكن تواصلي مع (كرم) لم ينقطع يومًا، عكس تواصلي الضعيف المتذبذب معك، الذي يعتمد على تقلبات أحوالك الاجتماعيّة وتنقلاتك الجغرافيّة.

- إقامتي في المدينة النبويّة ليس فيها غرابة وعجب يا (سُمعه) .. إنها حكاية حب وعشق قد وقعا في قلبي، زرتُ المدينة النبوية عدة مرات، فعشقت السكن فيها؛ حبًّا في مسجد الرسول ﷺ وذكريات صحابته رضي الله عنهم، شعرتُ بنقاء هوائها العليل، وهدوئها الخالي من الضجة، وعرفتُ الراحة النفسيّة فيها؛ لعدم التزامي بروابط اجتماعيّة وعائلية كثيرة، خصوصًا بعد أن أجريت عملية القلب المفتوح الناجحة، كاشفتُ زوجتي (جوزة) عن موضوع انتقالنا للمدينة والسكن فيها،

فاستغربتُ من موافقتها السريعة دون تردد ومناقشة، وكأن عشق المدينة قد وقع في قلبها مثلما وقع في قلبي قبلها، فاستأجرتُ سكنًا فيها، ومكثتُ في المدينة المنورة لمدة أربع سنوات، ثمّ عدتُ أدراجي لمدينة الرياض من جديد، حاملًا صرة من الذكريات الغالية في قلبي عن المدينة المنوّرة وعن أهلها، وأدركتُ حينها بأن حبي للرياض سرمدي، وباقٍ للأبد ولن يزول من حياتي.

سكت الاثنان معًا، لم ينبس أحد منهما بكلمة واحدة من أجل إعادة الحوار لجادته السابقة، ولم يُبادر أي منهما بالكلام لفك حصار الصمت الذي ران بينهما، بدا على هيئة (إسماعيل) كأنه وقع في لوم نفسه كثيرًا؛ لقد ظن أنه أخطأ بحق صديقه (عبد القادر)، لم ينتبه لتهوره في توجيه بعض الأسئلة الخصوصيّة لصاحبه، ربما هو لا يُريد استدعاءها من الذاكرة، فكان الصمت منجاة من تبعات كثيرة لهما، وربما اتهمه (إسماعيل) في (الالتزام) بطريقة سافرة وغير لبقة، كان اتهامه له خاليًا من الذوق العام في الشؤون الخاصة، وهكذا طبع بعض البشر، يتدخلون في خصوصيّات الآخرين في أدق التفاصيل، بأسئلة متتالية، ليس لهم علاقة بها لا من قريب ولا من بعيد، وربما ينقلون لأسماعهم أخبارًا من مصادر لا يعلمون عن صحة صدقها، ولا يفقهون

منها شيئًا، فربما تكون شبهات سمعوها من حاسد أو حاقد أو مغرض أو مشوه لسمعته. فحاول (إسماعيل) تدارك ما فعله من خطأ وسقطات، فكر في إعادة صاحبه (عبد القادر) مرة أخرى للحوار الودي معه من جديد، فقال:

- يا (قدوري)، كنتُ طفلًا يافعًا صغيرًا لا يفقه من الحياةِ شيئًا، عندما سمعتُ عن ذلك الجيل الذي خرج في مظاهرات (طلابيّة)، عمت كل البلاد العربية، بدعم من الجامعة العربيّة ومؤسساتها الفكريّة، منددين بغطرسة الكيان الصهيوني الغاشم ومن وقف وراءه عسكريًّا وسياسيًّا، حارقين بعض قطع الأعلام الملونة التي لا ذنب لها، وبعض الدمى التي صُنعت من قطن وقماش للأعور (موشي ديان) التهمتها النيران، واعتبر الشارع هزيمة حزيران لعام 1967م (نكسة)؛ من أجل تأييد ومواساة الناصريين بغباء، ثمّ في مرحلة الإعدادية صفقنا جميعًا لخديعة الرئيس (أنور السادات) بحرارة في عام 1973م، يوم كتبنا عن مهزلة حكاية عبوره خط (بارليف)، حيث اعتبره بعض الصحفيين العرب (بطل العبور)، وفيما بعد جاء لنا البطل (السادات) بمشروع فكرة المصالحة والخنوع، وتوقيع معاهدة الركوع مع (العصابات الصهيونيّة)، وعلى أثرها تم عزل (مصر) عن اللحمة العربيّة،

وفي عام 1980م نشبت نار الحرب العراقيّة الإيرانيّة، وكانت أطول الحروب في القرن العشرين، فدامت ثمانية أعوام، خلّفت من القتلى والأسرى الكثير من الطرفين، وألحقت أضرارًا بالغة في اقتصاد العراق وفي بنيته السكانيّة والعمرانيّة والاجتماعيّة، ثمّ جاء دور الغزو العراقي غير المبرر لجارتهم دولة الكويت في عام 1990م، فعاصرتُ أيام حرب الخليج الثالثة بقيادة القوات الأمريكية والبريطانية على العراق في عام 2003م، وشاهدتُ ما فعلت طائراتهم وصواريخهم في بغداد وبقية المحافظات الأخرى، وعشتُ بعدها ثلاث هجرات متتالية كانت خطرة على حياتي، فبعد خروجي يا (قدوري) من قفص الحبس الظالم، حيث كدتُ أن ألقى حتفي خلف جدرانه جثة متعفّنة، من الجوع والعطش وضعف التهوية في (السرداب)، لولا أن تداركنا لطف من الله الرحمن الرحيم، فبعث لنا حفنة من اللصوص، كل هذا مجرد أني أردت أن أحصل على جواز سفر لي ولعائلتي؛ من أجل العمل في دولة الإمارات العربية، ابتليت الأمة بحكومات ظالمة، من ذوات الحزب الواحد، ذات التوجه العسكري الدكتاتوري، تُنادي بمبدأ (الحرية) وغيرها من المبادئ الراديكالية السامية، وأبناؤها هم من ينصب لأصحاب هذه المبادئ (المشانق) في كل المدن، فالدكتاتورية من أخطر الأمراض التي تفتك بالمجتمعات، ومع الأسف فإنّ الحكومات التي جاءت بعد احتلال

العراق كلها أشد فتكًا وأكثر ظلمًا من الحكومات الحزبيّة السابقة، لقد مارست الحُكم بوصايا فكر مرجعي مذهبي طائفي فارسي، حاقد على العنصر العربي مهما كانت ملته وعقيدته، منذ يوم هزيمتهم في معركة القادسيّة، ومنذ يوم سقوط هيبة الدولة الفارسيّة، فمع الأسف لقد جعل الغرب من دولة (العراق) الوطن العربي الحر مستعمرة إيرانية، يعبث فيها الفُرس كيفما يشاءون.

هجراتٌ ثلاثٌ يا (قدوري) اختل فيهن كيان حياتي، وشعرتُ خلالها أن العالمَ قد انهار فجأة تحت قدمي، وأني بدأت أهوي لقاع عميق بلا قرار، إلى أن فقدتُ الصلة بكل من حولي من الناس، منذ أول يوم خرجتُ فيه مهاجرًا من مدينة (البصرة)، واستمر فينا السقوط نحو العمق في مدينة (عمّان) شيئًا فشيئًا، وشعرتُ بأن الأرض تُريد أن تبتلعنا، ومن الهجرة الأولى إلى الهجرة الثانية في مدينة (درعا) السوريّة، وزحامٌ شديد حول لقمة العيش، تجلت في أبشع الصور، وأنتم جيراننا أهل الخليج لم تشعروا ولو لمرة واحدة، بشخص قريب منكم يكتوي بنار الفاقة والحاجة لكل شيء .. حاولت يا (قدوري) بكل جهدي أن أجد لي صيغة مصالحة اجتماعية واعية مع الحياة والمجتمع الجديد الذي انتقلنا له، تُمكننا من التعايش في سلمٍ مع بيئة جديدة تختلف عن بيئة

مجتمعنا، بدون تنازلات جوهرية تمس هويتنا العراقيّة وموروثونا الوطني، وعقيدتنا الإسلامية الصافية من الشرك والبدع، وبدون عناد من قبل الأطراف الأخرى التي نعيش معها، لكن لم أرَ شيئًا في أفق الغربة يُشجع على هذه الرؤية في المستقبل، فكنا مهددين بالمساءلة من قبل جهات الأمن السوريّة في أي وقت ولأي سبب كان، ربما هم يختلقونه لنا أو يُلفقونه، وكنا ننتظر الطرد والتشريد في أية لحظة منهم، كما فعلوا مع إخواننا الفلسطينيين من قبل عدة سنوات، وكل السوريين كانوا يعلمون جيدًا، بأن الشارع في سوريا كان يغلي غضبًا وغيضًا وحقدًا وكراهية على الحكومة (العلوية)، فسرعان ما اندلعت ثورة (الشباب) كما يسمونها في سوريا، فدقت أجراس الهجرة الثالثة لتركيا، وحمدًا لله على كل حال، ويجب عليّ أن أعترف لك يا (قدوري) بأنّ الحياة الجديدة في تركيا تُعتبر لنا بعثًا جديدًا لأرواحنا وذواتنا، جعلتني أعود لنفسي مرة أخرى وأهتم بشؤونها الداخليّة، وأنتشلها من حطام اليأس والخراب والدمار النفسي والمستقبل الضائع، وأن أستعيد كل صداقاتي القديمة التي فقدتُ خلال فترة هذه الهجرات الثلاث، وأن أزرع حدًّا أدنى من المصالحة الروحيّة مع الحياة الجديدة في تركيا، وأن أستوعب جيدًا، أنّ مثل هذه المبادرة إن لم تكن لي فلتكن لأبنائي (ثائر وثامر) من بعدي، وأهم ما في الأمر وأجله، المسارعة في إعادة شحن الطاقة المفقودة

في النفس، وتدريبها من جديد على الاستمتاع بهذه الحياة، فلن تتحقق لنا أية سعادة صريحة على أرض الواقع إلا من خلال قناعتنا، النابعة من داخل ذواتنا، ثمّ سرعان ما وطنتُ نفسي على قبول كل ما حصل للعراقيين جميعًا، على أنّه نوع من أنواع الابتلاء من رب العالمين، علينا قبوله بنفس قانعة راضية في قدره خيره وشره؛ كي ننال الأجر والثواب من الله، وكل ما يحصل لنا من ابتلاء يُعتبر نوعًا من أنواع الموت الجزئي فينا، دائمًا أتذكر شخصًا آخر تُوفي قبلي، وعليّ أن أقبل بما تبقى مني من أجزاء لا تزال حيّة، حتى ألحق به في الأيام القادمة، لذلك بفضل الله لم أقاوم حصار (الابتلاء) الذي تعرضنا له، ولم أبحث عن علاجات مسكنة، أو القيام بحلول مستعجلة، غير آمنة في نتائجها، كل ما فعلته هو أني رتبتُ نفسي وفق ما أتوقعه لرجل يحب الحياة ويبحث عن فرصة فيها.

إنّ الدكتور (إسماعيل) يُدرك تمامًا أنّ من طبيعة البشر نسيان مرارة الماضي وقسوة آلامه مع مرور الزمن، ولن يبقَ من تلك المرارة سوى حصاد الذكريات التي تتفاعل مع كل حدث، فتضفي عليه نوعًا من السحر المتخيّل، الذي يجعل الإنسان يحن إليه على الدوام رغم تعاسته ومساوئه، كما أنّه يعلم - علم اليقين - أنّ ما يجعل الماضي أكثر جذبًا هو مرارة الحاضر المؤلم وفظاعته، فتُصبح ذكريات الماضي - بما فيها -

ملاذًا نفسيًّا وكهفًا يهرب إليه الإنسان كلما اشتدت به الخطوب؛ ليجد لنفسه بعضًا من السلوى والمواساة في تلك الخلوة النفسيّة الراقدة في أعماقه، لكن الدكتور (إسماعيل) يُدرك أنّ ماضيه الأليم الذي تجرع مرارته خلال العقود القليلة الماضية أتعس من أن يكون ملاذًا نفسيًّا له ولغيره ممن عاصر هذه المحن؛ فمآسيه وكوارثه وحروبه - التي دمرت وهجّرت مجتمعًا بأسره - جروحٌ متقرّحة في حياتهم، تنزف كل حين دمًا وقيحًا.

❋❋❋

(9)

استنكر (إسماعيل) رغبة (عبد القادر) في ضرورة العودة لمدينة (سقاريا) مبكرًا؛ إذ طلب منه أن يكون فيها قبل أذان العصر، وعندما سأله عن السبب في ذلك لم يكن رده مقنعًا له؛ فلقد كان في نية (إسماعيل) زيارة بعض معارفه في (يلوا)، وتسوية حسابات معلقة مع بعض المكاتب العقارية فيها، واستغرب (إسماعيل) أكثر من صديقه (عبد القادر) الذي شاهد كثيرًا من الشقق والفلل المميّزة، ذات التشطيب العالي الجودة، والمعروضة للبيع بأسعار رخيصة، لكنه لم يفكر في اختيار أحدها، رغم أنّ أسعار العروض كانت مشجعة جدًّا على الشراء، ومغرية بالنسبة له، خصوصًا مع هبوط سعر صرف الليرة التركيّة مقابل العملات الأجنبية ..

(إسماعيل) لا يُريد أن يتطفل على رأي صديقه وخصوصيته في مسالة اختيار المناسب له، ولا يُريد أن يسأله عن سبب عدم اختياره؛ خوفًا أن يظن (عبد القادر) بأن توصياته وأسئلته تدفعانه لسرعة عملية الشراء؛ لذلك لزم (إسماعيل) الصمت عن سؤاله، مثلما لزم (عبد القادر) الصمت عن بيان عدم اختياره.

في طريق العودة لمدينة (سقاريا) أراد (إسماعيل) أن يواصل حديثه الذي بدأه ولم يستطع أن يكمله في رحلة الذهاب:

- يا (قدوري)، قبل عدة سنوات أسسنا في مدينة (سقاريا) رابطة للمهاجرين العراقيين، حاولت السفارة العراقيّة - بكل الوسائل - أن تمد يد العون والمساعدة لنا؛ من أجل احتواء تجمعنا، فرفضنا أي دعم مادي أو معنوي يأتي من قبل القنصلية، كما حاول بعض الإخوة السوريين الانخراط في قائمة هذه الرابطة، فرفضنا -بتصويت الأغلبية- عدم الموافقة على انضمام أية جنسيّة أخرى ليكون عضوًا في رابطة (الغُربة والغُرباء)، ورحبنا بمشاركاتهم معنا في كل البرامج التي تقدمها الرابطة، وخصوصًا برامجنا الثقافية التي نُحييها كل شهر، ولقد أتحنا لهم الفرصة كاملة للتفاعل معنا. ضمت هذه الرابطة بعض العشرات من ذوي الفكر والثقافة والأدب، نُقيم بعض الندوات الثقافية والأدبية،

وأصدرنا جريدة إلكترونية أسبوعيّة أسميناها (الغُربة والغُرباء)، تهتم بأخبار العراقيين المقيمين في تركيا، بعيدًا جدًّا عن الرؤية السياسيّة والتشنجات الحزبيّة والطائفيّة والمذهبيّة، ورفضنا - رفضًا قاطعًا - هجرة الأيديولوجيات الداخلية إلينا .. هدف تجمّعنا هذا إنساني مبني على قيام اللحمة الوطنيّة العراقيّة، تجمّع يشد من أزرنا، ويقوي من عزيمتنا، ويُعيننا - نحن (الغُرباء) - على وحشة هذه (الغربة)، فنحن غُرباء في مهجر لا نعلم متى تنقلب سياسة حكومته علينا، وترمينا على الحدود التركيّة العراقيّة.

غدًا مساءً يستضيفنا الأستاذ (صباح قيس) صاحب مطعم (الشورجة) في بستانه الواقع في منطقة (المعشوقية)، ليست بعيدة عن (سقاريا)، ستقام أمسية شعرية، وأنت يا (قدوري) أعرفك تعشق الشعر وتهواه، لقد جهزتُ لهذه الأمسية قصيدتين، فاعتبر نفسك مدعوًّا لسماع شعري غدًا، كما نرحب بك أن تشارك معنا في قصيدة شعرية من نظمك، سأذهب معك للمعشوقية غدًا عصرًا؛ لترى بعض البساتين المعروضة للبيع هناك، لعلك تزيد من قيمة استثمارك في تركيا، وتستبدل رأيك بفكرة شراء بستان بدلًا من شقة مخنوقة بأربعة جدران.

- جميل جدًّا أن أذهب معك لحضور الأمسية الشعرية، وسمعتُ عن (المعشوقية)، ولي رغبة في رؤيتها ومعرفتها.

حين وصل (عبد القادر) للفندق كان مُجهدًا قليلًا؛ بسبب مشوار رحلة (يلوا) الطويل، فالذهاب والعودة في اليوم نفسه لمدينة (يلوا) متعب بعض الشيء، فالطريق استغرق أكثر من أربع ساعات، ذهابًا وإيابًا دون توقف، فعند دخوله للنُزل توقف عند مكتب الآنسة (فريال)، وألقى عليها تحية المساء بودٍّ وحرارةٍ، فردت على تحيته بتحية، كما تفعل مع كل مُقيم في (النُزل) .. لم يشعر (عبد القادر) بأي اهتمام يخصه، ومما زاد الأمر سوءًا لديه وانعكس على حالته النفسية، أنها لم تسأله عن أخبار سفرته لمدينة (يلوا)، رغم علمها المسبق عنها، وكأنها تتجاهل عودته منها، مثلما تتجاهل وقوفه عندها، حاول أن لا يظهر اهتمامه بمثل هذا الأمر، وأن يُداري ردة فعله لمثل هذا التجاهل السافر، وراح يسألها عن موعدهما مساء هذا اليوم، إن لم يطرأ عليه تغيير من قبلها، فأجابته بالنفي، وأخبرته بأن عملها سوف ينتهي في تمام الساعة السادسة مساءً، وتنتظر مجيء زميلتها الكُردية (يارا)، التي عادة لا تتأخر عن الحضور في الوقت المحدد، لتُسلمها زمام العمل والعهدة التي في حوزتها، ثمّ تأتي للمكان المتفق عليه، قرب محل بائع الليمون في سوق الخضار.

جلس (عبد القادر) في شرفة الغرفة المطلة على الميدان، ينظر أسفل منه لحركة الأقدام السريعة في الوصول لهدفها الذي يجهله، يسوق ما تبقى من وقت العصر، ليأتي المساء الذي أصبح بطيئًا جدًّا بزحفه.

لم تتأخر (فريال) على موعدها مع (عبد القادر)، وجاءت له بالوقت المحدد نفسه مسبقًا، عندما بدأت شمس آخر النهار بالاختفاء، وهكذا تعلمت من مدرسة أهلها، أن احترام المواعيد ظاهرة ثقافية، ويُعتبر من موروث الشعوب المتحضرة، بينما كان (عبد القادر) واقفًا قريبًا جدًّا من أحد الأركان الأربعة لبائع الليمون، لا يعلم من أي جهةٍ سوف تأتي إليه، تحدث إليه بائع الليمون باللغة التركيّة التي لم يفهم منها شيئًا، فلم يرد عليه (عبد القادر)، كان مشغولًا بمراقبة الجهات الأربعة، رأسه كأنه مروحة أرضية لا تستقر باتجاه واحد .. شاهد (فريال) قادمة من الجهة التي كان ينظر إليها صدفة، لتُنقذ موقفه من جهله في اللغة التركية، فتسلم عليه بداية دون مصافحة يده، ثمّ تلتفت على البائع لتتحدث معه، ولم يعرف (عبد القادر) ماذا قالت له .. استغرب (عبد القادر) من حجابها الأبيض، الذي يستر تحته كل شعرها الذهبي بما فيه جبهة الرأس، ليترك طرفه الأمامي خطًا مستقيمًا فوق حاجبيها الدقيقين مباشرة، ترتدي قميصًا أبيض، مُتناسقًا جدًّا مع لون الحجاب، ذا (كِم)

طويل يصل لحدود كفيها، وينزل للأسفل ليُغطي ركبتيها لستر مؤخرتها المرتفعة، فعجب من تصرفها المتباين، في الفندق ترتدي قميصًا ذا نصف (كِم)، وقصير جدًّا لا يستر مفاتنها البارزة من كل جهة.

- آنسة (فريال) لم أعرفك من بعيد أثناء قدومك، لم أتوقع أن تأتي محجبة.

- أستاذ (عبد القادر): أنا لا أخرج من المنزل إلّا محجبة، ولكن مع الأسف هذا شرط صاحب (النُزل)، لا يُريد أن يُوظف المحجبات .. إنّه رجل (علماني)، له فلسفة خاصة في فهم الإسلام .. تصور أنّه رفض أن نضع في غُرف (النُزل) سجادة للصلاة، أو نضع لوحات إرشادية لمعرفة اتجاه القِبلة من أجل الصلاة، وبرّر ذلك بأنّ الجامع الكبير أمامهم، ومعروف اتجاه قِبلته، ولو أرادوا الصلاة فليذهبوا للجامع المفتوح على مدار الساعة من أجل الصلاة فيه، وأنا أنتظر نيل شهادة الماجستير قريبًا إن شاء الله لأبحث لي عن عملٍ آخر .. سبحان الله، ابن الإسلام، وفي بلد الإسلام يُناصب للإسلام العداء والكراهية يا أستاذ (عبد القادر)، فالسيد (دلدار) يبحث له عن تبرير لعرقلة أداء إحدى شعائره، فأمثال هؤلاء هم جاهزون للتوظيف من أعداء الأمة الإسلامية في أي لحظة.

- يا آنسة (فريال): على ماذا ضحكتي عندما تحدث معكِ بائع الليمون؟

- قال لي: بأنه كان يتحدث إليك منذ لحظة وقوفك بالقرب من محله، فلم ترد عليه بكلمة واحدة، بل كنت لا تُريد أن تنظر إليه، فظنَّ أنك (أصمخ) لا تسمع، لكنه اكتشف فيما بعد عندما تكلمتَ معي بأنك: عربي لا تفهم لغته التركيّة.

- لم أتوقعه كان يتحدث معي، وظننتُ أنه كان يُنادي على المشترين بصورة عامة من أجل تسويق بضاعته، كعادة أصحاب المحلات يُسوقون لبضائعهم.

تابع (عبد القادر) سيره إلى الأمام، جنبًا إلى جنب بالقرب من الآنسة (فريال)، كمن يمشي في حلم، سار لا يُريد أن ينتهي أبدًا، يتنفسُ من شذا عطرها المميّز، عبرا ممرات السوق الضيّقة، التي يزدحم فيها المتسوقون الذين يأتون من المدن والقرى الأخرى القريبة من مدينة (سقاريا)، فأسواقها تتميّز عن أسواق (إسطنبول) برخص أسعارها وكثرة بضائعها، تجنب (عبد القادر) أن يسألها: إلى أين هما سائران؟ فتجاوز معها عدة شوارع فرعيّة وأسواق، لتقوده فيما بعد عبر ممر طويل يُفضي لساحة كبيرة، انتشرت فيها تجمعات متفرقة من الرجال والنساء، تُحيط

في الساحة بعض المقاهي والمطاعم والمحلات التجارية، أخبرته (فريال) أن اسم هذه الساحة: ميدان (أتاتورك)، والعراقيّون فيما بينهم يُطلقون عليها (ساحة العراقيين)؛ نظرًا لكثرة تواجدهم فيها، هي ساحة المناسبات العامة والمهرجانات التي تُقام في محافظة (سقاريا)، فسقاريا ليست مدينة فقط، بل هي محافظة كبيرة وعاصمتها (سقاريا)، تضم عددًا من المدن والقرى الصغيرة .. دخلا أحد المقاهي الشعبية المزدحمة، كانت أصوات رواد المقهى عالية جدًّا، حتى أن (عبد القادر) تساءل في سره فيما إذا كانوا يُعانون من الصمم .. كان كلامهم لغطًا يختلط فيه الصراخ والثرثرة والضحكات العالية، مع أصوات ضرب قطع (الدومينو) التي كان يلعبها البعض منهم .. جلسا في إحدى الزوايا المنعزلة من المقهى، وبينهما طاولة دائرية الشكل صغيرة، استقرت فوقها منفضة ممتلئة من أعقاب السجاير .. طلب (عبد القادر) من النادل الذي وقف قربهما فور جلوسهما فنجانين من القهوة التركيّة، وأن يكون أحدهما بدون سكر، فأحضرهما بسرعة .. تحركت عينا (عبد القادر) برفق وهدوء، وراحتا تتجولان بحرية في تفاصيل ملامح الآنسة (فريال) عن قرب، كسائح أوربي يُريد التعرّف على تضاريس مكان أثري .. شعرتْ الآنسة (فريال) بمشروعه الاستكشافي لتفاصيلها الدقيقة، فتصنّعت بسرعة في جلستها الحياء والخجل، وبدأت تعضُ على شفتيها المصبوغتين

باللون الأحمر الخفيف بين حين وآخر، فيما أبقت عينيها الملونتين بالكحل ثابتتين في محجرهما لا تتحركان، أظنهما في ذلك الوقت كانا يكتشفان بعضهما البعض من جديد بدون كلام .. كان عقلها في تلك اللحظات يجول بين صور أطلال الذكريات؛ فبعض المواقف تتصلب كالصخور في مساحة الذاكرة والوجدان، لكن (عبد القادر) طمأنها بابتسامة رقيقة، امتدت من أقصى زاوية فمه اليمنى إلى أقصى الزاوية الأخرى .. رفع (عبد القادر) فنجان القهوة وقربه من فمه، واحتسى منه سلسلة رشفات متلاحقة، وكأنه بينه وبين نفسه شعر بلذة الفوز والانتصار بنيل مثل هذا اللقاء الجميل، كان مدفوعًا بسطوة الهيام، بفورة الحبّ الذي يشبه جنون الشباب، ثم أعاد الفنجان إلى مكانه على الطاولة، وقال محييًا إياها:

- مساء الخير آنسة (فريال): هل ممكن الآن أسمع منك سبب تحذيرك الذي شغلني كثيرًا؟

بدت الآنسة (فريال) مثل من عزم على عدم البوح بشيء ذي أهمية، أو مثل من يُعاني بضعفٍ في التعبير؛ بسبب نقص في ثقافة مفرداته، لذا بقيت صامتة، و(عبد القادر) يُصوب نظره إليها منتظرًا منها الجواب،

تتأمله بعينين لم يُدرك جمالهما إلا تلك اللحظة، ثمّ سمع صوتها يأتي من بعيد يتعالى شيئًا فشيئًا من أعماقها:

- مساء النور أستاذ (عبد القادر)، بداية وقبل كل شيء عليك أن تعلم بأنّ كل الغُرف التي في (النُزل) مراقبة صوتيًّا، ومنذ أكثر من عامين وأنا أعمل معهم في (النُزل) ولم أعرف لماذا هم يُراقبون أصوات المقيمين فيّه؟ ولا أريد أن أسأل عن هذا السبب؛ خوفًا من وضع نفسي في دائرة السؤال المحرج لي ولهم، ربما سيكون سببًا في إقصائي من الوظيفة، وإنهاء خدماتي معهم، ولا أعلم عن هذه الأجهزة التصنتيّة إن كانت تعمل على مدار الساعة وفي كل الغُرف، أم تعمل لمن هم يُريدون مراقبة غرفته في أوقات معيّنة.

- هل يأتي للنُزل شخصيات بارزة ومهمة؟ وهل تعتقدين أن المُراقبة من قبل أمن الدولة؟

- أكثر زبائن النُزل ليسوا من جهات رسميّة، وأغلبهم من العراقيين والسوريين .. في بعض الأحيان يلتقون في القاعات المخصصة للاجتماعات في الدور الرابع، لا أظن أنّ جهاز الأمن في الدولة هو من يُراقب، أو له علاقة مباشرة بهذه الأجهزة، وكل ظني أنّ السيد (دلدار)

هو من يُراقب، وهو من يُدير شبكة التجسس هذه .. كان والده له علاقات حميمية جدًّا مع وصي العرش على العراق (عبد الإله)، ومن المقربين له، دفعه أيام شبابه إلى الانخراط في (حزب الأحرار) الذي شكله الوصي (عبد الإله) ليدعم الحكومة عن بُعد في عهد الملك (فيصل الثاني)؛ ليقوم بتشكيل الوزارة بناء على رؤية مصلحته الخاصة، وفكرُ السيد (دلدار) مُشبّع بكراهية أبناء الجمهوريات، الذين استباحوا دماء وحرمات العائلة الهاشمية الحاكمة، سيد (دلدار) من أبناء الجيل الذي يعتقد بأنّ الجمهوريين هم من أورد المملكة العراقية لمثل هذه الموارد السيئة، من استعمار غربي اقتصادي إلى استعمار فارسي مذهبي، ونزعوا من أرضه بركة ثرواته وخيراته، وأنّ أمثالهم هم من يُنفذ المخططات الصهيونية في البلاد العربية.

- ما شاء الله عليك آنسة (فريال)، مُحاضرة في السياسة المعاصرة، لقد وضعتي النقاط على الحروف عن أوضاع عراق العرب، لكن ما سر علاقتي أنا بهؤلاء لتحذيري من رموزهم؟

- كل ما قلته لك لم أعاصره، ولكني سمعته من والدي رحمه الله وغفر له، لقد رأيتُ اهتمامهم غير الطبيعي بك، لدرجة أنهم أخرجوا أحد

النُزلاء من الغرفة قبل مجيئك بليلة واحدة، فشعرتُ ربما هم يُريدون احتواءك، فأردتُ أن أقدم لك هذا التحذير.

- ومن أنا؟ ومن أكون كي يُقدمون على احتوائي؟

- لا أعلم من تكون، وأنت أعلم بنفسك مني.

- وهل (إسماعيل) منهم؟

- لا أعلم، لكنه سمسار ماهر في العقار، ويعرف من أين تُؤكل الكتف، وربما مصلحته المادية تلتقي مع مصالحهم الخاصة، كل منهم يُحقق هدفه.

- آنسة (فريال)، ألا تخافين مني أن أكون معهم وأفشي سرك؟

- ربما تكون لم لا، لكن لم أقل غير الذي أعرفه عنهم.

- لماذا قلتِ لي عنهم؟ ما الدافع لهذا؟ هل هذا عداء خاص للسيد (دلدار)؟ أم هو خوف علي منهم؟

- لا أعلم بالضبط، لكن الكراهية له موجودة ومستعرة في قلبي؛ بسبب إصرار السيد (دلدار) على محاربة الإسلام وشعائره.

هكذا هم أبناء العرب، تندلق عليهم ابتلاءات متوالية ومتتالية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11]، فمن ابتلاء جنون الحزبية الملونة، بثيابها الشرقيّة والغربيّة، الحمراء منها والصفراء، إلى تطاحن في أوكار الطائفية السوداء العمياء القادمة من الشرق، يعيش أبناء الشعب الواحد المختلف الأعراق والطوائف والمذاهب لأكثر من نصف قرن بين بطلين شرسين. فتُهجّر حزبيّة الرأي الواحد نصف الشعب، من ذوي الكفاءات النادرة والخبرات المميّزة والشهادات العلميّة العالية .. هجّرت الحكومات المتعاقبة بقصدٍ أو بدون قصد كل من يرفض الانضمام إلى دروس المصفقين لسيناريو خيال (المناضلين) الأشاوس الأحرار، هجّرتْ وسجنتْ كل من لا يعترف بمبادئهم المقدسة، من شعارات فكريّة طنانة ورنانة في سماء الغرور. أما النصف الآخر من أبناء الشعب فيتقاتل كل يوم تحت راية الطائفية البشعة، ومومياء الحرية المذهبية الزائفة، يعيشون بين تفجيرات مُرعبة بتمويل أيادٍ أجنبية، واغتيالات متعمدة.

أخيرًا سمع (إسماعيل) عن قصة أخته وعائلة زوجها، الذين هاجروا إلى كندا، وتركت الممرضة (سعاد) لرعاية والدهما المسن الرافض لمبدأ الهجرة وترك الأرض التي ولد فيها. ثمّ تأتي رسالة مستعجلة من السماء

لتسعف باقي حياة والدهما مع ممرضته، موجة عنف مرعبة كالعادة تـنزل في شوارع بغداد، فتحصد الأرواح دون تفريق بين صغير وكبـير، وبـين رجل وامرأة، قتال شرس بين طوائف متناحرة فقس بيضها مـؤخرًا؛ مـن أجل الوصول لسدة الحكم في أقـصر الطـرق، تعقبهـا سلـسلة تفجـير لسيارات مفخخـة في كل مـكان، تمـر علـيهم سـاعات مرعبـة تـنهش مستقبلهم حتى العظم، وتُنزل بعضهم إلى الملاجئ لوقت طويل، ثمّ تستقر قذيفة على شرفة بيتهم القديم، فتـسقط كل النوافـذ والأبـواب، وتخـتم معها نهاية والدهما المقعد المريض.

❋❋❋

(10)

عندما عاد (عبد القادر) لغرفته في (النُزل) بعد لقاء الآنسة (فريال) الساخن، سارع إلى فحص الغرفة وتفتيشها شبرًا شبرًا؛ بحثًا عن مصدر لجهاز تصنت، فلم يعثر على أي أثر لجهاز فيها، لكنه اكتشف فعلًا عدم وجود (سجادة صلاة)، وعدم وجود لوحة واضحة في الغرفة تُشير إلى اتجاه القِبلة كما أخبرته الآنسة (فريال)؛ مما يؤكد له صحة كلامها في هذه الجزئية من حديثها، فلجأ لسريره لينال قسطًا من النوم، ويُفكر بأنّ الآنسة (فريال) ربما تكنّ في نفسها عداءً خاصًّا للسيد (دلدار)، وكأنها غير صادقة في نصحها له، ربما تُريد تشويه سمعته، ولكن المحيّر في الأمر ما مصلحتها في ذلك؟ وما مصلحة السيد (دلدار) منه؟

ركن (إسماعيل) سيارته بعيدًا عن بوابة بستان (صباح قيس)؛ نظرًا لشدة زحمة السيارات قُرب البوابة الرئيسة، بعد أن أخذ صديقه (عبد القادر) بجولة في (المعشوقيّة)، شاهد فيها عدة بساتين معروضة للبيع، دخل (عبد القادر) البُستان يتبع (إسماعيل)، البُستان مكون من باحة واسعة، مستطيلة الشكل، مفروشة بالعُشب الأخضر، تُحيط بها أشجار الثمار الكثيفة من كل جانب، وفي نهاية امتداد المستطيل العُشبي تربض فيلا مكونة من دورين، شاهد عددًا من الكراسي الكثيرة، ذات اللون الأحمر وقد صُفت بانتظام، أمام منصة صغيرة مرتفعة عن الأرض، فُرشت بسجادة كبيرة ذات لون أحمر كذلك، ورأى عددًا من المدعوين الواقفين هنا وهناك، وبعضًا من الحضور قد أخذوا أماكنهم في الكراسي استعدادًا لبداية الأمسية، وتفاجأ (عبد القادر) عندما شاهد صديقه (عبد الكريم) الذي لم يره لمدة تزيد عن العشر سنوات، رغم أنّ كليهما في (السعودية) .. لم يكن صاحبه (عبد الكريم) كعهده به سابقًا، ذا لحية طويلة، بل رآه حليق الذقن والشنب معًا، فكانت له مفاجأة كبيرة وسارة في الوقت نفسه، تعمّد صناعتها (إسماعيل) لهما، فكلاهما لا يعلم بمجيء الآخر للأمسية الثقافية، لم يُخبر (إسماعيل) أحدهما عن حضور الآخر لهذا اللقاء، قَدِمَ (عبد الكريم) من مدينة (إسطنبول) التي يسكن فيها لمشاركتهم اللقاء، فضم (عبد القادر)

صديقه (عبد الكريم) إلى صدره، وأخذا يتناوبان تقبيل بعضهما البعض، وكل منهما يقول للآخر: أهلا وسهلا (بالقاطع).

رن جرس هاتف (عبد الكريم) النقال بصوت التكبيرات، رغم انتهاء موسم الأعياد والحج منذ عدة شهور، فرد (عبد الكريم) على المتصل بصوتٍ خفيض جدًّا، من الصعوبة على من يجلس بقربه أن يسمع صوته، فنٌّ تعلمه (عبد الكريم) من سمسرة العقارات، وهكذا هم سماسرة العقار:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أهلًا وسهلًا بأخي العزيز (أبي ماجد).

- أخي الكريم (عبد الكريم)، لقد تأخرتم في تسليم (الفيلا)، منذ أكثر من ستة شهور وأنتم تُماطلون معي في وقت التسليم، كل أسبوع أسمع منكم وعودًا، تقولون فيها: في الأسبوع القادم (إن شاء الله) سنرسل العُمال لتشطيب ما تبقى من عمل، وكل يومٍ أذهب للموقع ولا أشاهد حركة عمل وعمال في (الفيلا)، والإيجار سيحل عليَّ بعد أسبوعين، ناهيك عن ملاحظتي التي دونتها لكم، والتي لم تأخذوها بعين الاعتبار، بخصوص نوع (أطقم) الحمامات ومساحة مقاس حجر

(السراميك) فيها، رغم أني دفعت لكم فرق الزيادة في السعر المتفق عليه في العقد.

- أبشر أبا ماجد، سوف نرسل العمال للموقع في اليومين القادمين إن شاء الله، بعد انتهائهم مباشرة من صبات العظم في مجمع منطقة (الحمراء) الغربية، وشروطنا كما تعلم كانت واضحة في العقد ومبنية على القبول والرضا بيننا، ولم نأخذ منك قرشًا واحدًا زيادة، والعقد شريطة المتعاقدين.

- يا سيد (عبد الكريم)، عندما جئت لكم لم يكن في حساباتي العقد ولا شريعته، ولا ورق ولا شهود، لقد جئت لكم بناء على معرفتكم الشخصية السابقة ومظهركم الديّن، الملتزم بأصول الدين ولسانكم الرطب بذكر الله وذكر رسوله ﷺ.

- عمومًا، نسأل الله التسهيل علينا وعليك أبا (ماجد) ولن يكون إلا خيرًا إن شاء الله.

ثمّ يرن هاتفه النقال مرة أخرى بصوت تكبيراته؛ مما جعل من حوله يستهجن عدم إغلاق صوت جهازه، فينظر (عبد الكريم) في شاشته ليعرف اسم المتصل، إنه حداد الأبواب والشبابيك، تنتهي التكبيرات ثمّ

يصمت هاتفه دون رد، فيسمع من حوله صوت التكبيرات من جديد للمرة الثانية والثالثة، وكأن جهاز الهاتف يستجدي صاحبه بضرورة الرد على الطرف الآخر، حتى يئس المُتصل من الرد رغم شدة عنفوان توسلات التكبيرات.

تتعالى أصوات التكبيرات من جديد بعد فترةٍ وجيزة، فينظر (عبد الكريم) في شاشة هاتفه الكبير، فعرف أنه صاحب تركيب (الخيام)، فتح (عبد الكريم) جهاز هاتفه ليرد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياك الله (أسكلان)، لماذا توقفت عن العمل في تركيب خيام مجمع (ديرة الكوتين) في (البورصة)؟

- يا سيد (عبد الكريم)، أنتظر منك سداد قيمة الدفعة الثانية من العمل الذي تمّ تنفيذه، فمنذ شهرين استحقت الدفعة الثانية، وأنت تقول لنا كل يوم: غدًا إن شاء الله، الله يسهل علينا وعليك إن شاء الله، ونحن نسمع أنك مدين لكثير من المقاولين الأتراك، ولا تُسدد لهم في المواعيد، بل لا يعلمون متى تعطيهم حقوقهم، فترد عليهم دائمًا بقولك: إن شاء الله والله يسهل علينا وعليك، فأنا توقفت ولن أكمل العمل معك قبل أن تدفع لي المبلغ المستحق عليك كاملًا، هل تعلم يا (عبد الكريم) بأن كل المقاولين الأتراك يسمونك: السيد (إن شاء الله).

- لماذا أنتم تستغربون من كلمة (إن شاء الله)، كل شيء بمشيئة الله، نحن ننوي ونُخطّط، لكن الأمر أولًا وآخر بيد الله سبحانه وتعالى، وعندما نستلم دفعات مالية جديدة من أصحاب الفلل سندفع لك ولغيرك من المقاولين إن شاء الله، الله يسهل علينا وعليك.

نقر عريف الحفل بأصابعه على وجه (المذياع) ثلاث ضربات متتالية؛ لينبه الحضور عن بداية الأمسية الثقافية، فعلى الحضور التزام الصمت والهدوء، شابٌّ لا يتجاوز عمره العقد الثالث، يرتدي (بدلة) كاملة بلون أزرق كُحلي وقميص أبيض، وربطة عنق زرقاء، يضع فوق أرنبة أنفه نظارة طبية ذات إطار دائري أسود اللون .. رحب بالحضور المنتظمين بمجموعتين؛ مجموعةٌ خاصة بالرجال ومجموعةٌ أخرى خاصة بالنساء، يفصل بينهما ممر بعرض المترين، بدون حواجز، وليس محظورًا عليهم لمن يُريد أن يصطحب عائلته قربه، حينها أراد (عبد القادر) أن يسأل (عبد الكريم) لماذا لم يصطحب معه زوجته التركيّة (مريم)؟ لكنه تراجع عن سؤاله؛ فهذه خصوصيات، وعليه أن يحترمها، وأن لا يتطرق لها حتى لو كان من باب المُزاح.

بدأت الأمسية الثقافية بكلمة من قبل السيد (صباح قيس) صاحب المزرعة، فهو الرئيس الفخري لرابطة (الغربة والغرباء)، فرحب

بالجميع، ثمّ طلب من السيد (دلدار) أن يقرأ عليهم بعض الأخبار السريعة التي تهم أعضاء رابطة (الغربة والغرباء)، فتقدم السيد (دلدار) يتمايل بجسده الضخم يمينًا وشمالًا كأنه بطريق تائه، مُرتقيًا درجات المنصة وهو يتحرك ببطءٍ وهدوءٍ شديدين، رفع نظارته الطبية السميكة عن عينيه؛ ليمسح عدستيها بورقة (كلينكس)، فبان الحزّ الذي خلفّه إطارها في أعلى أنفه وعلى جانبي عينيه، ثمّ أعادها إلى موضعها السابق، ومن مذكرة كانت موضوعة له على (طاولة التقديم) الذي يقف خلفها، قرأ عليهم حفنة من الأخبار المتنوعة وهو يُدير صلعته يمينًا وشمالًا، بحماسةٍ بالغة تجلت في ارتفاع صوته، الذي زاده حدة سكوت المستمعين المنصتين له، وعلق على بعض الأخبار بإيجاز، ثمّ طلب عريف الحفل من الأستاذة (يارا) أن تتفضل بتقديم خاطرتها.

فهمس (عبد القادر) في أذن (إسماعيل):

- هل هذه (يارا) التي تعمل في (النُزل)؟

- نعم، و(يارا) تعني في اللغة الكُردية: المحبوبة، وهي فعلًا محبوبة (دلدار).

- ماذا؟

- فيما بعد أشرح لك كل شيء عن حياتها، دعنا الآن نسمع ماذا تقول من كلام في خاطرتها، فالأستاذة (يارا) أديبة وقاصّة.

ارتقت (يارا) المنصة بحذائها الأسود المرتفع قليلًا؛ ليزيد من طولها شموخًا تتباهى فيه بين النسوة الحاضرات؛ مما جعل (عبد القادر) يظن فيها من الوهلة الأولى بشيء من الصرامة والجدية، إلا أن من ينظر جيدًا في طول قامتها، ونحافة جسمها، علاوة على بياض بشرتها، ودقة أنفها المرتفع قليلًا للأعلى، وعينيها العسليتين الجميلتين اللتين تُزينهما نظارة طبية، ذهبية الإطار، يشعر بطيبتها ورقتها وحُسن سريرتها، رغم أنّ الظن بحُسن النية وسلامة الطوية تُصبح أحيانًا عيبًا قاتلًا في الإنسان، ربما يقوده إلى ارتكاب أخطاء في الحكم والتقدير على الآخرين، فالحياة علمتنا أن الانطباعات الأولى غالبًا ما تكون خاطئة، أما شعرها الأسود القصير الذي قصته ليُغطي نصف أذنيها، تاركًا تحته قُرطين صغيرين متدليين، كأنهما ناقوسان يهتزان كلما حركت رأسها؛ مما يُعطيان المشاهد الانطباع الأول بأنها أصغر من سنها بكثير، وبدت (يارا) لبعض النساء الحاضرات أنّها قليلة الاحترام لمثل هذه الأمسيات الثقافية؛ إذ كانت ترتدي قميصًا أحمر اللون قصير الأكمام؛ مما سمح للمشاهد رؤية وشم أخضر كبير منقوش على عضدها الأيمن، وسروال

جينز أزرق اللون ضيّق، باهت لونه عند منطقة الفخذين، فصفق لها الحضور بحفاوة وتشجيع، خصوصًا من قبل الرجال، ثمّ قالت:

- اليوم سأقدم لكم خاطرة من صفحات دفتر الذاكرة باسم (أيديولوجية المنفى)، كتبتها في مرحلة من مراحل اللاوعي التي عشتها في السنوات الماضية:

قالت والحزنُ يُمزق قلبها:

أنــا لا أفهم أرصفةَ المنفى ..
كما دَرَستَها ودرّستها ..

لا أعرف موانئ الشوارع الشاغرةِ ..

ولا الطُرقاتِ العاريهْ ..

ولا صخب المدينة الساقطةِ ..

فأنــا فتاةُ الحضارةِ والثقافةِ ..

فتاةُ المدينةِ والمدنيّهْ ..
لا أفهم من علمِ بداوتك غيرَ:

أكلَ التمرةِ ورشفَ القهوةِ وقتلَ الشهوهْ ..

أنــا لستُ شعرًا في ربابتِكَ ..
تعزفني بين أوتارها ..

متى ما شئتَ ومتى ما اشتهيتْ ..

أنـــا لستُ خاتمًا في إصبعكَ ..
تتحكمُ في عواطفي ..
وتقسمُ بالله ثلاثةً:

بأني أهواكِ ..

وأنكِ معشوقتي ..
وتقسمُ بالله ثلاثةً:

بأنك ستُعيدني لحضارتكَ المنهارةِ ..

وتذبحُ نذوركَ عند أقدامي المرتجفهْ ..

لطفًا ..

لا تُقيّدني داخلَ دائرةِ غيرتكْ ..
ولا تغلق مفاتيح الأنوار دونيَ ..

لطفًا ..

أخرجني من صفحاتِ تاريخُكْ ..

من أرضِكَ، من طقوسِ عبادتِكْ ..

فإني كرهتُ الأرض التي تسكنها ..

واكتبْ تاريخكَ من جديدٍ ..

وانسَ ذلكَ الماضي العتيقِ ..

وكن مخلصًا لمن عشقت من فتياتكْ ..

لطفًا ..

لا تقذفْ حُرُماتي بِقبحِ كلماتكْ ..
اتركني في صومعتي وحيدةً كما كنتُ أنا ..

فأنا الناسكةُ المتعبدة في محراب حبي ..

لطفًا ..
لا تجعل لساني ينطلق من قيد سجانهِ،

فيهتكَ ستر عوراتكْ،

فأنا فتاةُ الحضارةِ والثقافة،

لا ألبس أقنعةً واقيهْ،
لا أمشي في ظلام الليل متخفيهْ،

لا أرمي جسدي فوقَ الطرقاتِ للذئابِ الجائعهْ ..

أَدخلُ الأسواقَ والكلُ يعرفني ..
من أكون أنا.

فهل عرفتَ من تكون هذه السيدهْ؟

فصفق لها الحضور بقوة ومن ضمنهم (عبد القادر)، الذي همس في أذن (إسماعيل)، وقال له:

- كأن هذه الخاطرة من أجناس الذكريات المريضة، فالأستاذة (يارا) تمدُ جسورًا نارية لتاريخ أحداث أليمة ماضية في حياتها، طوى حصيرها الزمن بذكريات مُزعجة، والآن تُريد أن تُحاصرها كتابة وتنتقم منها؛ من أجل تصفية كوابيس مفزعة تنتابها كل حين، أو أظن يا (سُمعه) كأنها فتحت صفحة محاكمة قديمة، بدأت تنبض من جديد في حياتها، وتُريد المرافعة فيها لتوفر أدلة جديدة لديها؛ لذا أعدت نفسها إعدادًا سليمًا من أجل الفوز بها، في نصها دلالات لأشياء كثيرة، والدلالة من وسائل إثراء اللغة في النص الأدبي، كأنها تُحاول تجديد اللغة بخلق معانٍ جديدة للكلمات.

- يا (قدوري)، في نهاية لقاء الأمسية، سيكون المجال مفتوحًا للتعليقات والإضافات والاستدراكات، فما رأيك أن تمد جسورك الاجتماعية مع الأستاذة (يارا)، وتُشارك في التعليق على نصها، وتتعرف عليها عن قُرب، كما تعرفت قبلها على الآنسة (فريال) دون علمي.

- بالله عليك يا (سُمعه)، كيف عرفت؟

- الآنسة (فريال) ذكية جدًّا في تصرفها، فقد أتت بك لمكان مزدحم وعام، يرتاده كثير من العراقيين كل مساء، فرأيتك معها، بينما كنتُ جالسًا في أحد المقاهي مع زوجتي أم (ثائر). وفي طريق العودة لمدينة

(سقاريا) سوف أخبرك بالتفصيل عن الآنسة (فريال)، وعن المطلقة الأستاذة (يارا).

فما كان من (عبد القادر) غير أن يضع يديه على وجهه حياءً وخجلًا من صاحبه (سُمعه)، ويلتزم بالصمت هروبًا من هذا الموقف، مصغيًا لصوت عريف الحفل، الذي يبدو أنه يُنادي على اسم صديقه (إسماعيل)؛ ليقدم ما لديه من شعر في هذه الأمسية. الذي وقف مسرعًا حين سمع اسمه، وبدأ يُنظّم من هيئته، ويمسح بيده على شعره الكثيف، وسار بخطى ثابتة وواثقة نحو المنصة، ارتقى درجات المنصة، رفع جهاز (المذياع) بيده اليسرى من قاعدته؛ ليسير به عدة خطوات، مبتعدًا عن (قاعدته)، الموضوعة فوق (طاولة التقديم)، بينما كان يحمل عدة أوراق في يده الأخرى، وتحرك فوق المنصة ذهابًا وإيابًا، وكأنه بارعٌ في عرضٍ مسرحي، قدم التحية للجميع، وأمطر زميله (عبد القادر) بوابلٍ من الترحيب، وأشار بسبابته إلى المكان الذي كان جالسًا فيه، طالبًا من صديقه (عبد القادر) أن يقف ليتعرف عليه الحضور .. موقف محرج لم يتوقعه (عبد القادر)، كانت المفاجئة الثانية له هذا اليوم بعد مشاهدة صديقهما (عبد الكريم).

قال بصوت مرتفع، سأقدم لكم قصيدة نظمتها منذ فترة بعيدة، في زمن (اللاوطن)، وأسميتها (آه .. يا تتر)، فكل ما فيها يصرخ في مرحلة (اللاوطن):

آه يا تَتَر ..

آخر زمن ..

كيف اقتحمتم الحُصنْ؟

هل نحن في علمٍ؟

أم نحن في الحلمْ؟

أم أنها الفتنْ؟

شرّعت أبوابها ..

أضاءت ليلها ..

على دروبِ المحنْ ..

بالأمس رُفعتْ راياتٌ ..

واليوم بغدادُ تُمتحنْ ..

الدمعُ يسيلُ على خدِّهِا ..

والنومُ ما عاشرَ فيها جَفنْ ..

البسمةُ غادرتْ أرضها ..

هاجرتْ تاركةً كُلَ المُدنْ ..

العربُ هُمُ العربْ ..

لا حربٌ تُغيّر فيهمُ ..

وحياتهمُ: غانياتٌ وفنٌ وطربْ ..

لا عبرةً تأخذُ عقولهمُ ..

ونسمع منهمُ ..

كثيرٌ من رغي الكلمْ ..

حياةٌ سئمناها منهمُ ..

وعيّشنا، ما عاد عيشٌ رغمَ النِعمْ ..

حضاراتٌ أشرقتْ،

ونحنُ بقينا على الوفاءِ،

كي يأذن لنا العمُّ ..

لا نسمع رأيًا ..

لا نستوعب درسًا ..

لا نقرأ ما كتبَ القلمْ ..

أيها القلمُ:

إلى متى تبقى مُحترمْ؟

متى تخرج من شرنقة الألمْ؟

فصمتُك طال علينا ليلهُ ..

وليلُك يزحفُ من عدمْ ..

أيسرُّكَ ما يجري هناك وهنا؟

أيسرُّكَ رؤية من ظَلمْ؟

متى تستنطقُ الحجرَ؟

بصوتِ حرفكَ ..

بصوتِ كلمةِ قَسمْ.

فصفق له الحضور، وضع (المذياع) في مكانه وعاد راجعًا حيث كان يجلس قرب (عبد القادر)، الذي وجه له اللوم على تصرفه، وقال له: لقد أحرجتني مع الحضور بمثل هذا التقديم، فلم يرد عليه (إسماعيل)؛ نظرًا لسماعه صوت عريف الحفل وهو يطلب من السيد (أمين) أن يأتي للمنصة، أحد الضيوف القادمين من مدينة (غزة) ليُلقي قصيدته التي أسماها (خلف جُدر)، بدأ كلمته بقوله تعالى ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر:14] :

(1)

نظرتُ من خلف الجُدرْ ..

فرأيت طفلًا ..

يتحرك ببطءٍ ويُداعبُ حجرْ ..

يتغنى بأناشيدِ الموتِ ..

ويُرددُ في جوفهِ: أين المفرْ؟

(2)

لا ..

ربما يستنطق الحجرْ ..

كي يرويَ لنا:

قصةَ أبيه الذي احتضرْ ..

بين عرباتٍ ..

بين مدرعاتٍ ..

وهل يستطيعُ الموتُ أن ينتظرْ؟

يوم كان جنينًا ..

في بطنِ أمهِ ..

يوم كانَ أبوهُ يُنددُ:

لا مؤتمرْ ..

لا للشجبِ ..

لا للمعارضةِ ..

لا للكيان الغاصبِ ..

لا لمنظماتِ البشرْ ..

(3)

لا ..

ربما ينتظر صحبتهُ ..

الذين حفظوا الدرسَ ..

واستوعبوا رمي الحجرْ ..

تعلموا:

أن الظُلمَ لن يسودَ ..

وبايعوا على قتل القهرْ ..

أو وأدوه ..

في ظُلمةِ النفسِ ..

في ظلمة الليّلِ ..

قبل بزوغ الفجرْ ..

(4)

لا ..

رأيت الطفلَ الصغيرَ ..

يقذفُ دبابةً بنصفِ حجرْ ..

لا يهاب الموتُ ..

لا يخاف السجّانُ ..

يعلمُ أن حياتَهُ قدرْ ..

فالموتُ أمامَ الغاصبِ بطولةٌ ..

وإنها لشهادةٌ تُنتظرْ ..

والزحفُ لا محالةَ قادمٌ ..

قد طالَ ليلهُ .. تذمرْ ..

(5)

لا ..

رأيتُ شابًّا يافعًا ..

يمتطي حماسةً وشجاعةً ..

وبقايا نصرْ ..

تفقّه في الدينِ ..

وعرفَ أنّ السكوتَ،

جريمةٌ لا تغتفرْ ..

وأنّ في الموتِ حياةٌ ..

طالما أولى القبلتينِ يحتضرْ.

في نهاية الأمسية الثقافية ودع (عبد الكريم) كلًّا من (إسماعيل) و(عبد القادر)، ووعدهما أن يلتقيا قريبًا في مدينة (إسطنبول)، وعاد قافلًا لوحده .. التفت (عبد القادر) إلى (إسماعيل) بعد أن أغلق صوت جهاز الراديو، وقال لصاحبه (إسماعيل) - في محاولة استفزازية منه وهو ينظر إليه:

- يا (سُمعه)، قل لي ما حكاية الفتاة الكُردية (يارا)؟ من تكون هذه اليارا؟

- ألهذه الدرجة مهمة (يارا)؟ رغم أنها في منتصف عقدها الخامس، هل أعجبتك هي أم خاطرتها ذات الدلالات اللغوية؟

قال (إسماعيل) هذا التعليق وهو يشيح ببصره بعيدًا جدًّا عن نظر (عبد القادر)، وكأنه يخشى ارتطام عينيه بعيني صاحبه.

- القضية يا (سُمعه) ليست إعجابًا بها وبغيرها من نساء تركيا الجميلات على حد زعمك، ولكن جوابك لي في مزرعة (المعشوقية) دفع شهية فضولي الفطري بقوة للسؤال عنها، وقد وعدتني بالتفصيل.

- أظنك سمعت خاطرتها جيدًا، فكلامها عبارة عن سلسلة ذكريات مُتَبرعمة من أغصان شجرة ألم، تُعاني منه كل حينٍ، جرحٌ عميق فشلت في تطبيبه وردم جروحه النازفة، يسيل قيحًا كلما تذكرت تلك الأيام الماضيات .. لقد ضحك عليها أحد المستثمرين الخليجيين، نسيتُ اسمه حاليًا، وعندما أتذكّره أخبرك عنه، فأسس معها شركة مقاولات عقارية (وهمية)، برأس مال دفعه كاملًا حسب السجلات الرسمية، وأقنعها بأن تكون شريكته في جني الأرباح، وأن تعمل في الشركة مديرة للعلاقات العامة، منحته حبها وكل ما في حياتها، وبعد خمس سنوات، أعلن عن تدهور أوضاع الشركة الماليّة، فلم تُحقق الشركة أية أرباح خلال هذه الأعوام، بل حققت خسائر فادحة؛ بسبب المصاريف الثابتة للشركة، من إيجار للمقر ورواتب للموظفين ومصاريف خدمات، والشركة أصلًا لم تكن تُمارس أي نشاط عقاري على أرض الواقع،

كانت عبارة عن واجهة لأعماله الشخصية غير المعروفة، دون علم (يارا)؛ بسبب ثقتها الزائدة به، وبعد مرور هذه السنوات الخمس من علاقته الحميمة مع (يارا)، بدأت القطيعة بينهما، فاستغربت (يارا) من هجره لها دون مقدمات ومبررات، ودون محاولة العودة لها والاتصال بها مرة أخرى، فترك عشها الذي كان عامرًا بالحب خاويًا وخاليًا من دفئه وأحاديثه .. هاجر للعمل في (البُوسنة)؛ حيثُ الفرص الاستثمارية الكثيرة، ففرص العقار فيها لاتزال في مهدها.

- إذًا (يارا) عرّت خارطة حقيقته بكتابة خاطرتها، فهي خير من يعرف طريقة تفكيره وأسلوبه في الحياة، فلم تترك مجالًا من مساوئه ومحاسنه دون ذكر، وضعت كل ما تعرف عنه في كفة الميزان، كأنها تُريد صلب كل ذكرياتها معه بقسوةٍ، وبدون رحمة، قل لي يا (سُمعه): وما حكاية السيد (دلدار) معها؟

- لا أعلم بالضبط سر علاقة هذا العجوز (دلدار) مع (يارا)، كل الذي أعرفه: أنّ هذا العجوز (دلدار) حرص على توظفيها قبل عام، رغم أنها غير مؤهلة رسميًّا للوظيفة؛ لأنها لا تُجيد اللغة الإنكليزية، فتنازل عن ذلك الشرط المهم، وبرره لإدارة التوظيف أنّها تُجيد اللغة التركيّة، وهي لغة البلد والمهمة في موظفة استقبال (النُزل)، وكل من في (النُزل)

شاهد اهتمام العجوز (دلدار) بـ (يارا)، فقد تبنى رعايتها منذ اليوم الأول لمجيئها للنُزل، حتى غدت (يارا) هي الموظفة المدللة بين الموظفات، لدرجة أن العجوز (دلدار) سمح لها أن تعمل في الوردية المسائية فقط، التي تنتهي الساعة الثانية عشر ليلًا، وأعفاها من الورديات الأخرى، التي تُطبق على الآنسة (فريال) وغيرها؛ بسبب ارتباطها بعمل آخر في صالون نسائي، وفي بعض الأحيان شاهدوا العجوز (دلدار) لا يُغادر (النُزل) قبل وقت نهاية ساعات عملها، فيطلب إيصالها لمنزلها بسيارته الخاصة.

- استغفر الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، لا نُريد أن ندخل في نوايا الناس، قل لي ما قصة الآنسة (فريال)؟

- الآنسة (فريال) امرأةُ انطوائية ومعقدة، ربما تجدها هادئة تمامًا، تجلس صامتة أغلب الوقت، لا تتكلم إلّا القليل، حتى تظن أنها تحب الصمت بسبب معاناتها من عيوب في النطق، تُحبُ العزلة والابتعاد عن الآخرين، فشلت في إقامة صداقات مع زميلاتها في العمل، تعرضت لصدمة عاطفية من الوزن الثقيل؛ فقد ارتبطت بزميلها في الكلية (أحمد) بعلاقة حب ساخنة، كل طلاب الكلية والجامعة كانوا ينتظرون إعلان زواجهما في أقرب وقت، ونال منها (أحمد) أغلى ما تملك الفتاة، ووعدها

بالزواج قريبًا لترميم ما فعل معها قبل أن تحل عليهما كارثة الفضيحة، وفي أحد الأيام بحثت عنه في كل مكان فلم تجده، فطار عقلها مع اختفائه، بعض من يعرفه من أقاربه وأصدقائه قالوا لها: لقد سافر (أحمد) إلى (جورجيا)، وجد عملًا هناك أفضل من تركيا، مع شركة سياحية عراقيّة، وآخرون أخبروها بأنه عاد إلى (الموصل)، لكن أخته المقيمة في مدينة (العريفيّة) لم تُخبرها بحقيقة الأمر، بأنه تعرف على فتاة (هولندية)، جاءت سائحة لمدينة (إسطنبول) مع (جروب) سياحي هولندي، كان يتجول معهم ليُترجم لهم المعالم السياحيّة في مدينة (إسطنبول)، فأحبها وعشقها وهاجر معها إلى (هولندا)، وبعد عام من علاقته معها تزوجها، فحصل على الجنسيّة (الهولنديّة)، التي كانت هدفًا ساميًا له، وعلمت الآنسة (فريال) بما عمل فيها حبيبها (أحمد) بعد فترة بحث طويلة ومضنية، لم تيأس خلالها من السؤال عنه، فنقمت على كل أصناف الرجال بعد أن أخفقت في سياسة عواطفها وحبها، واتهمتهم بالغدر والخيانة وعدم الثقة، وأصيبت بحالة نفسيّة سيئة، كردة فعل لما تعرضت له، وأصرّت على كل من يُناديها بأن يسبق اسمها بآنسة (فريال)، وصار القلق والسرحان رفيقي حياتها الدائمين؛ مما أثار شكوك من حولها من الأهل والأقارب بإصابتها بنوبات (هَوَس) خفيفة؛ إذ يغلب على ساعاتها اليوميّة الغمّ والهمّ والكآبة، فتألم لحالتها كل من عرفها، وأحزنه

كثيرًا أنّها لم تستطع التغلب على مشاكلها النفسيّة السلوكية والاجتماعية، وقتل مثل هذه الذكرى التعيسة المؤلمة، ودفنها في مقبرة النسيان، فأصبحت لديها موهبة غريبة في خلق الأعداء لها في أي مكان وزمان، وأصبح همّ الآنسة (فريال) الأول وشغلها الشاغل وهدفها الرئيس في الحياة، الذي تسعى إلى تحقيقه، هو الانتقام من عبث ذكريات هذا (الرجل)، كل رجل يمر في طريق حياتها، حتى لو كان عابر سبيل، تحرص أشد الحرص على أن تبني جسور علاقة ودية عاطفية معه، سرعان ما تُفقس مثل هذه العلاقة عن حب خادع، وعشق كاذب، وغرام مستباح وهيام مزيف؛ كي يقع فريسةً في شباكها؛ من أجل الانتقام منه لاحقًا، بأبشع الصور الاجتماعيّة دون رحمة، كما حدث في السنة الماضية مع أكثر من رجل تعرفت عليهم، إلا أنها لم تُثر أي مشكلة مع أحدٍ خلال هذا العام الذي أمضته في (النُزل)؛ بسبب الإنذار الذي تلقته من السيد (دلدار) مباشرة.

❋❋❋

(11)

تصرخ عجلات طائرة الخطوط الجويّة التركية فوق أرض مطار (سراييفو) عاصمة (البُوسنة والهرسك)، لتُعلن المُضيفة عن سلامة الوصول، مع تأكيدها على ضرورة إبقاء الأحزمة مربوطة حتى تقف الطائرة تمامًا، وتُطفئ إشارة ربط الأحزمة، بينما كان (عبد القادر) يُلملم حاجياته لوضعها في حقيبة الحاسوب السوداء؛ ليستعد للنزول من الطائرة، عبر السلم الملتصق بباب الطائرة لأرضية المطار، حيث كان الباص في انتظارهم لنقلهم لصالة القدوم في المطار .. يرن هاتفه النقال بدعاء إمام الحرم المكي (الحذيفي) بعد أن فتحه مباشرة، الذي كان مغلقًا أثناء فترة الرحلة، التي كانت مدتها ساعتين من مطار (صبيحة)، يُخرج

هاتفه من جيب حقيبة الحاسوب؛ لمعرفة اسم المتصل ..إنها زوجته (جوزة) التي سبقته في السلام:

- السلام عليكم.

- عليكم السلام والرحمة، من مطار (سراييفو) أتحدث معك.

- ماذا؟ كيف؟! ما هذا القرار المفاجئ يا (عبد القادر)، لم تُخبرنا؟ هل اشتريت شقة في تركيا؟

- لا .. لم أشترِ شيئًا بعد، رأيت بعض المستثمرين يتجهون إلى (البُوسنة) و(جورجيا) ويشترون فيهما عقارات، يقولون إنهما أرض بكر وخصبة للاستثمار فيهما، والكويتيون سبقونا إليهما؛ استثمارًا وإعمارًا، سوف يكون السكن فيهما أفضل من السكن في تركيا في قادم الأيام.

بدأت المضيفة تتحرك في ممر الطائرة، تُنبه بعض المتخلفين من الركاب على ضرورة التعجيل بإخلاء الطائرة؛ كي يلحقوا بالباص الذي ينتظرهم في الأسفل، لنقلهم لصالة القدوم في المطار.

- يا (جوزة) أسمع المضيفة تنبهني بضرورة النزول من الطائرة واللحاق بالباص الذي ينتظرنا في الأسفل؛ لنقلنا للصالة الداخلية، عندما أصل للفندق إن شاء الله سوف أتصل عليك لأشرح لكِ كل شيء.

- في أي فندق حجزت؟

- في فندق (بريستول)، يقع في قلب العاصمة، في أمان الله.

- خيرًا فعلت، أفضل من (النُزل) الذي سكنت فيه بمدينة (سقاريا)، مع السلامة.

يرن هاتفه النقال بصوت دعاء (الحذيفي) مرة أخرى، أثناء صعوده في الباص، يفتح هاتفه دون أن ينظر لشاشته ظنًّا منه أنها زوجته (جوزة)، ربما نسيت شيئًا لم تذكره له، وهذه أصبحت عادة لها في السنوات الأخيرة، بعد أن هجم عليها فيروس النسيان:

- يا جوزة، قلت لك عندما أصل للفندق سأتصل عليكِ وأشرح لكِ كل شيء بالتفصيل.

- هلا (قدوري)، معك (إسماعيل) وليس زوجتك (جوزة)، ولماذا انتقلت للفندق؟ ما هذا الخبر المفاجئ؟ ماذا حصل لك في (النُزل) من مشاكل؟

- هلا (سُمعه)، آسف ظننتك زوجتي (جوزة)، لقد كانت تتكلم معي عندما كنتُ في داخل الطائرة، فقلت لها عندما أصل للفندق سأتصل عليكِ. وسوف أتصل عليك أنت أيضًا يا (سُمعه) عندما أنهي إجراء الجوازات في مطار (سراييفو).

- ماذا !! مطار (سراييفو)؟ بالله عليك، ما القصة يا (قدوري)؟ مطار وفندق وباص، ماذا حصل دون علمي؟

- سوف أخبرك لاحقًا بكل التفاصيل عندما أصل للفندق بحول الله.

استغرب (عبد القادر) كثيرًا من مطار (سراييفو) المتواضع جدًّا، ومن يعرف الحرب التي دارت رحاها في (البُوسنة والهرسك) يعذرهم بسبب هذا الإهمال؛ فالبلد لم تتعافَ بعدُ من تلك الحرب الشرسة، ولقد عرف (عبد القادر) قيمة النعمة التي يرفلون فيها بوطنهم الغالي، وذكّره مطار (سراييفو) البسيط بمطارات الدول العربية الكثيرة في زمن

السبعينيات من القرن الماضي .. لم يُشاهد (عبد القادر) فوق أرضية المطار عددًا من الطائرات الأجنبيّة الكبيرة، ويشعر بالوحشة كل مسافر يدخل مطار (سراييفو) قادمًا من مطار (أتاتورك)، الذي يعج بآلاف المسافرين من كل بقاع العالم، منهم القادمون ومنهم المغادرون، أو حتى المسافر القادم من مطار (صبيحة)، الذي أقلع منه (عبد القادر)، سوف يشعر بالفرق الكبير بين المطارين، ولكن أجمل ما في مطار (سراييفو) - بالنسبة لعبد القادر - سرعة الإجراءات الرسميّة بالنسبة للحكومة، سواء أكانت في قسم الجوازات أو في قسم الجمارك، فلم يتأخر (عبد القادر) كثيرًا، ففي خلال دقائق قليلة تمكن من إنهاء الإجراءات ليجد نفسه خارج الصالة الصغيرة، عند لوحة كُتب عليها سيارات الأجرة، كُتبتْ باللغتين، اللغة (البوسنية) ذات الحروف الروسية، واللغة (الإنكليزية)، فيُقدم لصاحب سيارة التاكسي جواله المضيئة شاشته؛ ليقرأ منه عنوان فندق (بريستول)، الذي يملكه أكبر مستثمر سعودي .. لقد حجز (عبد القادر) إقامته في هذا الفندق ليلة البارحة عن طريق النت، عبر الموقع المشهور (بوك دوت كوم) .. يهز سائق التاكسي رأسه مؤكدًا على معرفته للمكان، وعندما أخذ (عبد القادر) مكانه في المقعد الخلفي رن هاتفه بصوت دعاء (الحذيفي)، فسمعَ سائق التاكسي يقول بصوت مسموع: ما شاء الله، سبحان الله، فعرف (عبد القادر) أنّ

السائق مسلمٌ، فنظر في شاشة هاتفه النقال لمعرفة المتصل؛ كي لا يقع في الخطأ مرة أخرى، فرأى الشاشة تُومض باسم صديقه (إسماعيل) الذي شغل تفكيره هذه التطورات السريعة المفاجئة:

- هلا (سُمعه)، لم أصل للفندق بعد، كأنك مستعجل على سماع الأخبار، أحدثك الآن من سيارة التاكسي.

- حمدًا لله على سلامتك أولًا، وثانيًا لقد فاجأتني بهذه السفرة، لم تخبرني عن هذه السفرة السريعة، فمتى قررّت أن تُسافر؟

- شكرًا لك ولاهتمامك، وتأكد يا (سُمعه) بأني لم أخطط لهذه السفرة، حتى زوجتي لم تكن تعلم عنها، كانت مفاجئة لي أنا كذلك، الليلة الماضية قررّت المجيء إلى (البُوسنة)، بعد دراسة مستعجلة لوضع الاستثمار في هذه المناطق، فبحثتُ عن طريق (النت) فوجدتُ حجزًا على طائرة الخطوط الجويّة التركية، فحجزت.

- أعلم أن (الفيزا) ليس من السهل الحصول عليها، بل في بعض الأحيان غير ممكنة، بالله عليك يا (قدوري) متى وضعت (الفيزا) في جواز سفرك ما شاء الله عليك؟

- منذ أكثر من ثلاثة شهور حصلت عليها في الرياض.

- أجل يا (قدوري) كيف تقول بأنّك لم تُخطط لزيارة (البُوسنة)؟

- سُمعه، صدقني لقد وضعت (الفيزا) في جواز سفري ولم أكن أنوي الذهاب إلى (البُوسنة) في هذه السفرة بالذات، رغم أنّ نية السفر إلى (البُوسنة) كانت موجودة لدي، لكن سمعت عنها كثيرًا عند وصولي لتركيا، فكل من قابلته من الخليجيين وجدته يتحدث عن (البُوسنة) وعن سحر جمالها ومميّزاتها الاستثمارية فيها؛ مما دفعني هذا التشجيع لزيارتها، فقررت السفر، طالما أني قريب منها.

- يا (قدوري)، لماذا لم تُخبرني ليلة البارحة لأقوم بالواجب من أجل إيصالك لمطار (أتاتورك)؟

- لقد أقلعتُ من مطار (صبيحة) القريب من (سقاريا)، والآنسة (فريال) أعطتني رقم هاتف ابن خالتها (عادل) في أول يوم وصلت فيه لمدينة (سقاريا)، وقالت عنه: إنه سائق ماهر ويعرف تركيا جيدًا، وحذرتني منه بالوقت نفسه، وقالت عنه بأنّه ثرثار، وفعلًا كما وصفته، فكان نعم الثرثار، لقد أفضى لي بأشياء كثيرة وغريبة لم تُخبرني عنها أنت يا (سُمعه)، عندما أصل للفندق أخبرك عن تفاصيلها.

- يا (قدوري) أظن أن العلاقة بينك وبين الآنسة (فريال) قد تطورت، وأخذت أشكالًا وصورًا بعيدة جدًّا عن عيون (النُزل)، من لقاءات في المقاهي العامة بداية، إلى أن قام ابن خالتها (عادل) بمسؤولية رحلاتك بسيارته الخاصة، والخافي أعظم.

- يا (سُمعه)، رجاء لا تذهب بعيدًا في ظنك الخبيث، مع السلامة.

سأل (عبد القادر) سائق التاكسي الذي يقوده للفندق، إن كان يتكلم اللغة الإنكليزيّة أو اللغة العربيّة، ومن عدة كلمات غير مفهومة رد عليه سائق التاكسي باللغة (البُوسنية)، مع استخدامه لغة الإشارة بالرأس واليد، عرف منه (عبد القادر) أنّه لا يُجيد الاثنتين معًا، بل ظن أنّ سائق التاكسي لم يفهم من سؤاله شيئًا، لكن (عبد القادر) فهم من سياق كلامه أنّه مسلم، لقد ردد أمامه الشهادة فرحًا عدة مرات، وكأنه يُريد التعريف بنفسه، بأنه مسلم، ثمّ أصرّ سائق التاكسي على زيادة تعريفه بهويته الإسلاميّة، مد السائق يده اليسرى في جيب باب السيارة، وراحت أصابعه تبحث عن شيء، ثمّ أخرج منه مصحفًا صغيرًا، ذا جلاد مخملي أزرق، رفعه عاليًا، وقبله عدة قُبلات ووضعه على جبهته عدة مرات؛ ليثبت له هويته الإسلاميّة، وفهم (عبد القادر) من كلامه أنه استمتع بصوت دعاء (الحذيفي)، وتمكن (عبد القادر) بصعوبة من

معرفة أنّه يُتابعه في أوقات صلاة التراويح والقيام في أيام رمضان، وعندما وصل (عبد القادر) للفندق بالغ في إكرامه كثيرًا، بينما راح سائق التاكسي يُقدم لعبد القادر كرتًا صغيرًا، دوّن فيه رقم هاتفه، إن رغب في (مشوار).

أغلق (عبد القادر) جهاز هاتفه النقال بوضعه على خدمة الطيران، ورفع جهاز هاتف الغرفة في الفندق، ووضع ورقة عدم الإزعاج على الباب من الخارج؛ فقد أخذ التعب والنوم يسرقان أبصاره من الرؤية، فرمى نفسه بلا شعور في السرير؛ كي يأخذ فترة راحة لبعض ساعات، فهو يعلم بأنه لم يذق طعم النوم إلّا سويعات يسيرة، لكن عصافير معدته بعد ساعتين بدأت تُزقزق جوعًا، فتسببت في إيقاظه من نومه العميق.

أخذ حمامًا طويلًا .. رن جهاز هاتفه بعد أن فتحه مباشرة، بعد خروجه من الحمّام، فكانت زوجته (جوزة) تنتظر اتصاله كما وعدها حين وصوله للفندق، لكنه نسي الأمر:

- سلامات يا (عبد القادر)!! لقد انشغلت عليك كثيرًا، لقد قلتَ لي: سوف تتصل عندما تصل للفندق.

- عذرًا .. كنت مرهقًا جدًّا فنمت، وما أيقظني غير عصافير بطني يا (جوزة) .. لقد عدلت عن رأيي في الشراء بتركيا؛ فقد رأيتُ كثيرًا ممن قام بالشراء في تركيا، والآن هم يبحثون عن سكن جديد لهم في (البُوسنة)، وسوف أدرس السوق العقارية في (البُوسنة)، وعندما أقرر سأخبرك قبل الشراء.

في أثناء حديث (عبد القادر) مع زوجته سمع تنبيه اتصال في هاتفه، فطلب من زوجته (جوزة) لحظة لمشاهدة المتصل عليه، فعرف أنه (إسماعيل) من تركيا، فاستأذن منها في الرد عليه، على أمل أن يتواصل معها فيما بعد:

- هلا (سُمعه) ..

- يا (قدوري)، لم تقل لي رأيك في مزرعة (المعشوقية) التي أعجبتك؟ هل أخبر صاحبها بالعرض الذي اتفقنا عليه أنا وأنت؟

- لا يا (سُمعه) .. انتظر، ليس الآن.

- قل لي ماذا قال لك هذا المجنون (عادل) بالله عليك؟

- هذا الرجل فعلًا ثرثار كما وصفته بنت خالته الآنسة (فريال)، ولكن لديه معلومات خطيرة وغريبة جدًّا لم تطلعني عليها أنت بالذات، ولا أعلم عن مدى صحة مصداقيتها.

- قل لي ماذا قال لك بالضبط، وسوف أخبرك عن صحة مصداقيتها يا (قدوري)، كما عرفتني.

- يا (سُمعه)، حمدًا لله أني حفظتُ كل ما قاله لي عنكم غيبًا، كان كلامه غريبًا وجادًّا في لهجته، تكلم عن شيء أسماه (منفى الرفاق) وبسط الحديث فيه، قال: أنتم أطلقتم عليه رابطة (الغربة والغرباء) للإخوة المغتربين، ثم قال: إنّ كل هؤلاء الذين التقيت بهم من مخلفات (الرفاق)، الذين يُقيمون في فنادق خمس نجوم، ويأكلون في مطاعم عالمية مشهورة، ويركبون سيارات فخمة، ويُتاجرون بأموال الوطن وأرواح المواطنين، همُ الهاربون من جحيم التصفيات الجسديّة والفكريّة والمذهبيّة، هم من يفكر بإنشاء دولة جديدة قائمة على حطام ذلك الموروث الأيديولوجي النتن، لكن نحن كشفناهم .. لقد بدأت بثور أفكارهم تطفو على وجه الرابطة التي أنشؤوها، فتثور كل يوم وتكشف لكل العراقيّين حقيقة خبثهم، فكرٌ متطرف مندفع لا تُروضه قبة الأمم، ولا ورقات الاستفتاء العمياء، ولا بصمات صناديق التصويت المحرّفة،

فأنت لا يمكن أن تفهم هذه الحرب الدائرة في فضاء القطر وخارجه، إلا من باب التجارة الحرة لتحقيق أرباح فاحشة غير شريفة، يجنيها صُناع الحرب ومروجي القتل، من عمليات غسيل الأموال، وصفقات أسلحة فاسدة. هكذا هي الحياة الآن يا أستاذ (عبد القادر)، أصبحت اليوم نفقًا مظلمًا، وهكذا هو صديقنا السائر على رصيف درب المعرفة الوجودية، ثم يُواصل (عادل) قوله، فيقول: إن ما بين الولادة والموت مشوار تطوّر، يشمل كل ما في (الوجود)، رصيف يمشي فوق جسده كل ما في (الوجود)، نمشيه ببطء شديد لنُدرك وحدة (الوجود)، فالمصدر واحد، لكن حياة واحدة لا تكفي؛ لذلك نحن نذهب ونعود، ونغضب ونرضى، نتعارك فيما بيننا وسرعان ما نتصالح، ننتقي أوطاننا ونتجرع خصام طوائف شعبنا كلها، ونترحم على بقايا أهلنا الأحياء في الداخل والخارج، في كل مرة كجزء من قفزة التطور الصغيرة أو الكبيرة لكل مرحلة وجودية. انتهى كلامه يا (سُمعه).

- يا (قدوري)، بالله عليك هل فهمت شيئًا من هذا الكلام الغريب الذي أرهقت نفسك بحفظه؟

- طبعًا .. لا، ولكن قل لي: ما سر العلاقة بين رابطة (الغربة الغرباء) وبين (منفى الرفاق) الذي اتهمكم به (عادل)؟

- هذا الرجل (وجوُدي)، والوجودية فكرها قائم على الفلسفة، هل سمعت في حياتك عن (الوجودية)؟

- نعم، سمعت عنهم، ولكن لم أقرأ عن عقيدتهم شيئًا.

- تيار فلسفي بشع، يميل إلى حرية الرأي التامة في التفكير بدون قيود نصيّة موروثة، ويؤكد – بداية - على تفرد هذا الإنسان، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجّه نصي أو شخصي، وأخطر ما في فكر (الوجودية) أنها دخلت مجال الأدب من أوسع أبوابه على يد الفلاسفة الفرنسيين، وبعض الناس تخلط بين (الوجودية) وبين المسيحيّة، ولكنها فلسفة خالصة ملحدة، وليست دينًا مسيحيًّا كما يظن بعض الجهلة، ونشأت الوجودية من التأزم العميق الذي عاشه الإنسان في حقبة من الزمان بكل وجدانه، لم يتمكن من الانتصار.

- حمانا الله من هذا الفكر الضال المنحرف يا سُمعه، وحمدًا لله على نعمة الإسلام والهداية إليه، وسلامة العقيدة الصافية.

- يا (قدوري)، كم يوم سوف تستقر في (البُوسنة)؟

- ربما أسبوع أو أقل، وسوف أعود للرياض عن طريق مطار (إسطنبول)، سآخذ فكرة عن الفلل والشقق المعروضة للبيع، دون

الإقدام على شراء، بالرغم من أنّي تعرّفت على أحد المسافرين القادمين من دولة الكويت، كان معي في الطائرة القادمة من تركيا، لديه مكتب عقارات في كل من (البُوسنة) و(جورجيا) ونصحني برؤية الاثنين معًا قبل الإقدام على شراء عقار في تركيا، ويجب أن لا أشتري من مكاتب عقارات خليجيّة، عليَّ أن أشتري مباشرة من المكاتب العقارية (البُوسنيّة) أو (الجورجيّة)، الظاهر يا (سُمعه) كان لديه الرغبة في مساعدتي، والله أعلم في النوايا.

- هكذا أنتم أيها الخليجيّون لا تعرفون أين تضعون محفظة استثماركم، وها أنت يا (قدوري) بالذات تُكثر من السفر بحجة شراء عقار لك، كما لو أنّ السفر بحد ذاته مطلب عندك، في حفظ الله وبالتوفيق لك.

- في حفظ الله (سُمعه) .. شكرًا لجهودك الكثيرة.

المؤلف/ عبد الجبار الخليوي

دبي في 2016/10/01م

turathi@hotmail.com